سيرة ذاتية و خيالية :
جلوسي مع العظماء
كتابة و تأليف :
زكرياء الرياحي

جلوسي مع العظماء

"جلوسي مع العظماء"

كتابة و تأليف :
زكريا الرياحي

4

كان الليل قد تجاوز منتصفه منذ زمن لا يعلمه إلا القمر، لكن في المرآب الصغير عند أطراف المدينة، لم يكن هناك أثر للنوم أو السكون. الهواء ثقيل كأنه يقطر صمتًا، وجدران المكان تنكمش ببطء كأضلاع صدر عجوز يحتضر. في وسط هذه العزلة، جلس زكرياء الرياح، ساكن الجسد، مشتعل الفكر، عيناه نصف مغمضتين كأنهما نافذتان تطلان على شيء أبعد من العالم.

منذ ثلاثة أسابيع لم يعرف النوم، لم يذق طعمه إلا كغمضة عابرة تنهشه كوابيس اليقظة فتطرده منها مذعورًا.
كان يأكل قليلاً، يتحدّث إلى نفسه كثيرًا، ويراقب عقارب الساعة كما يراقب سجين أظافر سجّانه.
لقد انقطع عن كل شيء، كأنّه نزع نفسه من نسيج الواقع وألقى بها في فراغ ذهني لا قاع له.

كان في رأسه سؤال يتضخّم كل ليلة، حتى صار كالطبل الجوف يدوّي في جمجمته بلا توقف:

5

«ما العظمة؟

ما الخلود؟

ولماذا يذبل الناس كأوراق الخريف بينما يبقى بعضهم كجذوع لا تنكسر؟»

كان يكرّر هذا السؤال بصوت مبحوح، ثم يصمت طويلاً كمن يخشى أن يسمع الإجابة.

في البداية، حاول أن يهرب منه بالقراءة... فقرأ، وقرأ، وقرأ.

قرأ عن قادةٍ بنوا إمبراطوريات ثم سقطوا موتى على خرائطهم،

وعن مفكرين كُفّروا في حياتهم ثم صاروا أنبياء للفكر بعد موتهم،

وعن علماء ماتوا مجهولين ثم صارت نظرياتهم حجر الأساس للعالم الجديد.

لكن شيئًا غريبًا كان يزعجه دائمًا:

كل هؤلاء، على عظم شأنهم، بشر... لحم ودم، شكّوا وخافوا ومرضوا، ثم ماتوا.

ومع ذلك... بقوا.

بقوا كأن الزمن نفسه يخشى محوهم.

كان يتمدد على أرضية المرآب الباردة، يحدق في السقف

المعدني المظلم، ويهمس:

«ما الذي أبقاهم؟

ما الشرارة التي التهمت موتهم وجعلت أسماءهم تصمد؟

وهل يمكن أن أجدها؟

وهل أملك الحق أصلاً أن أطمح لخلودٍ مثلهم؟»

ثم يضحك ضحكة قصيرة بائسة، ضحكة لم تشبه الفرح بل أشبهت طقطقة غصن يابس تحت حذاء:

«أم أنّ الأمر كلّه صدفة؟

صدفةٌ سخيفة جعلت أسماءً تلمع وأخرى تتعفن في ظلال النسيان.»

كان يشعر كأن العالم لعبة شطرنج ضخمة، ملايين البيادق تموت كل يوم، لا أحد يتذكرها، بينما يبقى ملك واحد فقط في نهاية الرقعة...

وكان يريد أن يكون ذلك الملك.

لكن كلّما ازداد يقينًا برغبته، ازداد شكّه في جدواها.

كان حواره مع نفسه يأخذ شكل معركة، معركة بين صوتين في رأسه:

الصوت الأول، رخيم وبارد كأستاذ عجوز يقول:

7

«العظمة وهم... كلهم سيمحى يومًا. حتى الشمس ستموت. ما نفع أن تحفر اسمك على رماد؟»

والصوت الآخر، حادّ كنصل مسلول، يصرخ:

«لكنهم حيّون الآن في كل فكر... لقد هزموا الفناء.
وإن لم أحاول... سأموت قبل موتي.»
كان جسده ينهار ببطء تحت هذا الصراع، لكن عينيه تزدادان توهجًا كل ليلة، كأن نارًا خفيّة تنمو في داخله.
لم يعد يرى العالم كما يراه البشر.
كل وجه يراه في الشارع، كل مبنى، كل شارع... كان يراه هشًّا، مؤقتًا، مصيره المحو.
وكان يشعر أنه وحده يعرف الحقيقة البشعة التي يهرب منها الجميع:
أن كل شيء يذبل.
وأن كل من لا يصنع معنىً خالدًا... يُمحى.
وفي تلك اللحظات الليلية الطويلة، حين يذوب الزمن ولا يبقى سوى عقله يدور في فراغٍ أسود، بدأت فكرة مجنونة تنمو في داخله

8

ببطء كمرض نبيل:

«ربما السرّ ليس في الكتب... بل في العيون.

ربما لأعرف سرّ الخلود ... يجب أن أنظر في عيون الخالدين أنفسهم.»

كانت فكرة مجنونة، لكنه تمسّك بها كالغريق يتمسك بخشبة.

أن يسافر عبر الزمن.

أن يشقّ الماضي ويخرج من بين طبقاته، ليس سائحًا ولا مؤرّخًا، بل تلميذًا لعظماء ماتوا منذ قرون...

أن يسألهم:

«كيف فعلتمها؟

كيف تحدّيتم الفناء؟»

ومنذ تلك اللحظة لم يعد هناك طريق عودة.

بدأ يصنع آلة، لم تكن آلة بالمعنى الدقيق، بل كائنًا ميكانيكيًا من الضوء والجنون.

جمع لها تروسًا صدئة من محركات قديمة، ودوائر ضوئية من

حواسيب محطمة، وقطعًا من حجر نيزكي أخفاها منذ سنوات في صندوق خشبي، كأنّه كان يعرف أنه سيحتاجها لهذا اليوم.
كان يعمل عليها كمن يبني هيكله الأخير، كمن يشيد تابوته بيديه، أو يخلق سفينة صغيرة ليبحر بها خارج الكون.
وخلال عمله، لم يتوقف عن الحديث مع نفسه.
كان يكلّمها كما لو كانت شخصًا آخر يسكنه، شخصًا يشكك فيه بلا توقف:

- «وماذا إن فشلت؟»
- «إذن سأفنى كبقية البشر.»
- «وهل يستحق الفناء كل هذا الألم؟»
- «نعم... إن كان ثمن محاولة الخلود.»

كان يحدّق أحيانًا في يديه المتسختين بالشحم والدمع ويهمس:

«العظمة لا تُمنح... تُنتزع من أنياب الزمن.»

وخارج المرآب، كانت المدينة نائمة بسلام تافه، لا تدري أن أحد

أبنائها يتهيّأ لتمزيق القوانين التي بني عليها كل شيء.
لا تدري أن اسمه قد يكون يومًا ما على ألسنة أطفال لم يولدوا بعد.
في الليلة الأخيرة، وقف أمام آلته الغريبة بعد أن أتمّها.
كان جسده مرتعشًا من الحمى والإرهاق، لكن قلبه ينبض بعنف كأنما يحاول كسر ضلوعه والهروب.
لم يشعر أنه بشري بعد الآن... بل كأنه فكرة خالصة، شرارة مجرّدة تبحث عن حطب تشتعل فيه.

أغلق عينيه، واستدعى كل الذين قرأ عنهم يومًا، لا أسماؤهم ولا وجوههم... بل صدى وجودهم.
كأن أرواحهم جميعًا مصطفّة في الظلام حوله، تراقبه بصمت.
قال لهم في داخله:

«لن أطلب مباركتكم... فقط انتظروني.
سآتي... واحدًا تلو الآخر... وسأنتزع منكم السرّ الذي أخفيتموه عن العالم.»
ثم ضغط على المفتاح الأخير.

10

دوّى في المرآب صوت يشبه صرخة ولادة نجم
تفتّتت الجدران إلى ذرات ضوء، وابتلعه نفق متشظٍ من ألوان لم يرها بشر من قبل.
تلاشت الأرض، تلاشى الهواء، تلاشى جسده، وبقي فقط سؤال واحد ...
سؤال اشتعل في العدم مثل شمعة وحيدة في بحر من الظلام:

«هل سأعود ... أم أنني بدأت الآن بالذوبان في خلودهم؟»

ثم اختفى كل شيء.
ولم يبقَ في هذا العالم سوى شرارة اسمها: زكرياء الرياح.

11

12

استفاق زكرياء فجأة، لكنه لم يشعر بجسده كما عرفه.
لم يكن مرآبه بعد الآن... ولا أصوات المدينة المألوفة تصل إليه.
كان على سطح أرض متعرّج، حجري، تحت سماء رمادية متلألئة بضوء خافت يخلط بين شفق الفجر ووهج غريب لا يمكن تسميته.
الهواء بارد، ثقيل، ورائحة الأرض القديمة ملأت أنفه، كأن الزمن نفسه يتنفس حوله.

جلس على الأرض، يحاول استيعاب ما حدث.

«أين أنا؟... هل هذه...؟ لا... لا يمكن... هل عبرت الزمن بالفعل؟»

نظر حوله، لم يجد سوى مبانٍ قديمة من حجر متآكل، أعمدة نصف مكسورة، وطرقًا ترابية متعرجة تتجه نحو أفق ضبابي لا يرى نهايته.
كل شيء هنا يختلف عن أي شيء قرأه أو شاهده في الكتب، لكنه في الوقت نفسه كان مألوفًا... كأنه يذكّره بشيء من أحلامه القديمة.
وقف، بدأ يمشي بحذر، كل خطوة تصنع صدى غريبًا بين الصخور،

صدى يشبه همسات الماضي.
مع كل خطوة كان قلبه ينبض أسرع، وعقله يغوص في أسئلة لم تتوقف:

«كيف سأصبح عظيماً في مكان لا أعرفه؟
كيف أترك بصمتي هنا، حيث لا يعرفني أحد؟
وهل الخلود حقاً ممكن؟
أم أنني مجرد وهم يسعى وراء وهم؟»

توقف عند نبع صغير يتدفق بين الصخور، انحنى ليشرب، وعند انعكاس وجهه على سطح الماء، رأى نفسه مختلفًا.
عيون أكثر حدة، ملامح أكثر صرامة، وابتسامة صغيرة تقول:

«إن لم تخشَ، لن تعرف... إن لم تجرب، لن تعيش.»
جلس على صخرة قريبة وأخذ يفكّر بصوت مسموع، مونولوج داخلي طويل كما اعتاد:

«لقد قرأت عنهم... عن الذين تحدّوا الموت والفناء... لم يكونوا مجرد

بشر... كانوا رموزاً، شرارات للخلود.
وأنا هنا... أبدأ من الصفر... لا أصدقاء، لا أسلحة، لا معرفة سوى ما حملته في رأسي.
لكن ربما... ربما يكفي أن أملك الشجاعة للبحث، أن أملك الفضول بلا نهاية... أن أملك الرغبة الجامحة لأن أرى ما لم يره أحد.»

أحس بنسمة هواء تعانقه، كأنها تدفعه للأمام.
نظر حوله، نحو الطريق الترابي الضبابي، ثم أخذ نفسًا عميقًا وبدأ السير.
لم يكن يعرف إلى أين يؤدي الطريق، لكنه كان يعلم شيئًا واحدًا: كل خطوة تقربه من معرفة سرّ العظمة، كل خطوة تقترب به من لقاء من سيكشف له غطاء الخلود.

ساعات تمضي، والضباب يتلاعب بالمباني الحجرية، يخلق أشكالاً تشبه الوجوه والرموز.
كل ظلٍ وكل صدى يجعل قلبه يخفق أكثر، وعقله يتساءل:

«هل سألتقي من علّمني التاريخ... أم سأصبح أنا من يعلّم الزمن نفسه؟»

وفي تلك اللحظة، على أطراف المدينة الحجرية، لمحت عيناه بوابة قديمة، نصفها منهار، منحوتة برموز غريبة لا يعرفها.
وقف أمامها، يشعر بتيار غامض يسرّب عبر قدميه، كأنه يدعوه للعبور.
رفع يده، لمس الحجر البارد، وفجأة أحس برعشة تسري في جسده، وكل صدى المكان يختلط بصوت داخلي يقول له:

«الآن يبدأ كل شيء... الآن ستبدأ رحلتك الحقيقية.»

ومع خطوة واحدة عبرت قدمه عتبة البوابة، شعر أن الزمن يتلوى حوله، وأن الأرض تحت قدميه لم تعد موجودة، بل صارت سيلاً من لحظات لا يعرفها بعد.
ابتلعته الظلال، وبدأ رحلته الحقيقية، حيث كل لقاء، كل سؤال، وكل اكتشاف سيعيد تشكيله، حجرًا حجرًا، فكرة فكرة، نحو العظمة... نحو الخلود.

خرج زكرياء من البوابة بحذر، ولا تزال جسده ينبض بشعور غريب، كأن الزمن كله يراقبه.

وجد نفسه في شارع واسع مرصوف بالحجارة، يعلوه أعمدة نصف مكسورة وأسقف من خشب قديم.

المدينة نابضة بالحياة، لكن بطريقة مختلفة... الناس يلبسون أثوابًا غريبة، صاخبة ألوانها، يتحركون ببطء وحذر في الوقت ذاته.

كان كل شيء مألوفًا لكنه مختلف، كأن التاريخ نفسه قرر أن يعيد رسمه قبل أن يولد.

بدأ زكرياء يتجول بين المارين، يراقبهم بصمت، يدرس كل حركة، كل نظرة، كل ابتسامة، كأنه يحاول قراءة شفرة الزمن.

كل خطوة تقوده إلى فضول أكبر، وكل زاوية تكشف له أسرارًا عن مجتمع قديم لم يعرفه إلا في الكتب.

وفجأة، توقف عن السير.

رأى الناس مجتمعين حول رجل يقف على منصة صغيرة، محاطًا بظلال طولية للشمس الغاربة.

الرجل يبدو عظيمًا، لكن ليس بعظمة مادية، بل بعظمة فكرية تهيمن على المكان، كل كلمة ينطق بها تجذب الناس بلا مقاومة.

الوجوه حوله مشدوهة، عيونهم معلقة به، كما لو أن كل ما يقال يحمل وزن الكون نفسه.

اقترب زكرياء بفضول، يحاول سماع الحديث.
قال الرجل بصوت عميق وحاد:

«من منكم يستطيع أن يجيب على سؤال بسيط؟
ما هو جوهر العظمة... وما الذي يجعل إنسانًا خالدًا في ذاكرة الناس؟»

وقف الصمت كجدار أمام الكلمات، والناس يتهامسون بين أنفسهم بلا جدوى.
ثم، فجأة، شعر زكرياء بدافع غريب يتملكه، شعور لم يعرفه من قبل:

«يجب أن أقول شيئًا... يجب أن أشارك، حتى لو لم أعرف ماذا سيحدث.»
تقدم خطوة واحدة نحو المنصة، وأخذ نفسًا عميقًا، ثم قال بصوت واضح، هادئ، لكن مشحون بالثقة:

«العظمة... ليست في القوة، ولا في المال، ولا في الجيوش.
العظمة تكمن في الفهم، في قدرة الإنسان على رؤية ما لا يراه الآخرون،
في قدرة فكره على مقاومة النسيان،
وفي شجاعة قلبه على مواجهة الموت والخوف والفناء.»

صمت قليلاً ثم أضاف:

«الخلود ليس هبة تُمنح، بل أثر يُترك. من يترك أثرًا في فكر البشر... يظل حيًا، مهما حاول الزمن أن يمحوه.»

انحنى الرجل على المنصة قليلاً كأنه يُفكر في كل كلمة قالها زكرياء، ثم ابتسم ابتسامة خافتة لكنها عميقة، وأجاب:

«حسنًا... يبدو أن هناك من بدأ يفهم قبل أن يسأل.
من أنت أيها الشاب؟ من أين تأتي، وكيف تملك مثل هذه الحكمة؟»
ابتسم زكرياء في سره، ولم يجب على الفور.
عرف أن الوقت لم يحن بعد ليكشف نفسه، لكن داخله شعر بشيء جديد... شعور بأن هذه هي أول خطوة حقيقية في رحلته نحو

العظمة، شعور بأن المعرفة وحدها قادرة على اختراق الظلام.
وبينما كانت الشمس تغرب، بقي زكرياء واقفًا، يراقب الناس من حوله، يتساءل في صمت:

«من هؤلاء العظماء الذين سأتعلم منهم؟
وما الذي سيُختبر في رحلتي قبل أن أفهم سرّ الخلود الحقيقي؟»

وهكذا، بدأ فصل جديد من رحلته... فصل يخبئ له كل مفاجأة، كل درس، وكل تحدٍ سيعيد تشكيله حجرًا حجرًا، فكرة فكرة، نحو العظمة المطلقة.
بعد أن انتهى الحديث أمام الناس، شعر الرجل العظيم أن هذا الشاب مختلف عن البقية.
أومأ له برفق، وأشار له بأن يتبعه بعيدًا عن الجموع، إلى شارع ضيق مظلل بين أعمدة نصف مهدمة وأشجار صغيرة.

جلسا على صخرة كبيرة، بعيدًا عن أصوات المدينة والوجوه المتلهفة، وكانت الشمس ترسل أشعتها الأخيرة لتلوّن السماء بضوء ذهبي باهت.

ابتسم الرجل وقال بهدوء:

«أراك مختلفًا، يا شاب... لديك فضول لا يهدأ، وعين ترى ما لا يراه الآخرون.

هل تعرف لماذا يؤمن الناس بما يؤمنون؟»

هز زكرياء رأسه، وقال بصوت منخفض:

«أعتقد أنهم يبحثون عن سبب... عن تفسير لما لا يفهمونه.»

ابتسم الرجل بعمق، ثم بدأ يسرد له:

«تمامًا... انظر إلى بلدي، مدينتي. الناس هنا يعيشون حياتهم وفق قصصٍ من آلاف السنين.

يؤمنون بالآلهة والأساطير... زيوس هو سبب الرعد، وأثينا تحمي المدينة، وأبولون يجلب النور والصحة.

كل شيء لهم سبب خارجي، قوة غامضة تسيطر على مصائرهم... وهم يصدقون ذلك بلا نقاش.»

أومأ زكرياء بتأمل، وقال:

«لكن إذا نظرنا إلى الظواهر بعقل منطقي... الرعد ليس سوى تفريغ كهربائي، والنور ينتشر عبر أشعة الشمس، والصحة تتحكم فيها قوانين الجسم والعناية به.»
ضحك الرجل بمرارة خفية، وقال:

«بالضبط... العقل منطقي، لكن البشر يحبون القصص.
يحبون أن يختزلوا العالم في آلهة وشخصيات أسطورية... لأن هذا أسهل من مواجهة الحقيقة بأن الكون لا يهتم بهم، وأن عليهم فهمه بأنفسهم.»

بدأ زكرياء يتأمل في كلامه، ثم قال:

«إذاً الأسطورة هي نوع من التكيف، هروب من الواقع، أو طريقة للسيطرة على الناس؟»

أومأ الرجل بحزن:

«نعم... لكن ليس كل شيء سلبي. الأساطير تمنح الناس شعورًا بالأمان، رابطًا بين الماضي والحاضر، بين الإنسان والكون.

لكن... عندما ينسون العقل، يصدقون ما يشاع لهم بدلاً من اكتشاف الحقيقة بأنفسهم.

أحيانًا تجد أنه حتى أعظم العلماء يمكن أن يسقطوا في وهم الأساطير، إذا لم يكن لديهم الشجاعة للتساؤل.»

جلس زكرياء صامتًا، مستوعبًا عمق الكلام، وفكر في كل شخص قرأ عنه في الكتب: كيف تحدّوا الأساطير، وكيف استطاعوا أن يخلقوا أثرًا خالدًا عبر العصور.

ثم قال الرجل بجدية:

«انظر حولك، يا شاب... هل ترى الناس في الشارع؟ كلهم يعبدون قصصًا صنعها الأجداد.

زيوس يصنع الرعد، بوسيدون يغضب في البحر، وأفروديت تثير الحب والخلافات... وهم يصدقونها، دون أن يتساءلوا: لماذا؟ كيف؟ وماذا لو كان الواقع مختلفًا؟»

ابتسم زكرياء وقال:

«لذلك أنا هنا... لأرى الحقيقة بنفسي... لأختبر ما وراء الأسطورة، وأفهم كيف يربط البشر الواقع بالخيال.»

ثم غاصا الاثنان في حديث طويل، عن المدن القديمة، عن الأديان والأساطير، عن الناس الذين يفضلون السحر والقصص على العقل والمنطق، وعن الأسئلة التي لم يجد لها أحد جوابًا حقيقيًا بعد.
تحدث الرجل عن الأجيال التي آمنت بزيوس والرعد، وأبولون والشفاء، وأثينا والحكمة، وأوضح كيف أن كل أسطورة تحمل جزءًا من الواقع، لكنها مشوهة بما أراده البشر.
قال زكرياء في داخله:

«الحقائق هنا، مخفية تحت طبقات من الإيمان والقصص... ومن يفكّها، يصبح قريبًا من الخلود.»

واندمج الاثنان في الحوار حتى غابت الشمس تمامًا، وأصبح الشارع المظلل مليئًا بصدى الكلمات الثقيلة، صدى يبدو وكأنه سيبقى خالدًا في الذاكرة، أكثر من أي رعد أو ضوء إلهي قد يتحدث عنه الناس.

ثم غاصا الاثنان في حديث طويل، عن المدن القديمة، عن الأديان والأساطير، عن الناس الذين يفضلون السحر والقصص على العقل والمنطق، وعن الأسئلة التي لم يجد لها أحد جوابًا حقيقيًا بعد.
تحدث الرجل عن الأجيال التي آمنت بزيوس والرعد، وأبولون والشفاء، وأثينا والحكمة، وأوضح كيف أن كل أسطورة تحمل جزءًا من الواقع، لكنها مشوهة بما أراده البشر.
قال زكرياء في داخله:

«الحقائق هنا، مخفية تحت طبقات من الإيمان والقصص... ومن يفكّها، يصبح قريبًا من الخلود.»

واندمج الاثنان في الحوار حتى غابت الشمس تمامًا، وأصبح الشارع المظلل مليئًا بصدى الكلمات الثقيلة، صدى يبدو وكأنه سيبقى خالدًا في الذاكرة، أكثر من أي رعد أو ضوء إلهي قد يتحدث عنه الناس.
جلسا على الصخرة في الشارع الضيق، بعيدًا عن صخب المدينة، والسماء تتلون بألوان الغروب الباهتة.

الرجل العظيم بدأ الحديث:

«انظر حولك، يا شاب... هذه مدينتي. الناس هنا يؤمنون بالقصص منذ آلاف السنين.
كل شيء لهم سبب خارجي، قوة غامضة تحكم مصائرهم... وهم يصدقون ذلك بلا نقاش.»

زكرياء أومأ، وقال:
«أفهم... لكن إذا نظرنا بعقل منطقي، فإن كل شيء يمكن تفسيره بدون اللجوء للأساطير. الرعد، الضوء، الصحة... كل شيء له سبب طبيعي.»

ابتسم الرجل بعمق، وقال:

«بالضبط. العقل منطقي، لكنه ليس ما يختار البشر دائمًا. البشر يحبون القصص لأنها تمنحهم شعورًا بالأمان... رابط بين الماضي والحاضر، بين الإنسان والكون. لكن المشكلة أن العقل غالبًا يُهمل.»

تدخل زكرياء بحذر:

«هل تقول إن الناس يفضلون السحر والقصص على الفهم؟»

الحقيقة؟»

الرجل نظر إليه بعينين متأملتين، وقال:
«ليست خاطئة بالمعنى الكامل... كل أسطورة تحمل شيئًا من الواقع، لكنها مشوهة بما أراده البشر عبر الأجيال. زيوس الرعد... ربما يرمز فقط لقوة الطبيعة، أبولون الضوء والصحة... رمز للنظام والجمال... وأثينا والحكمة... فكرة أن العقل مهم... لكن القصص أعطيت حياة للشعوب أكثر من الواقع وحده.»

زكرياء ابتسم في سره، وقال:

«إذاً الحقيقة هنا مخفية تحت طبقات من الإيمان والقصص، ومن يكتشفها، يقترب من الفهم الأعمق، وربما... من الخلود.»

الرجل العظيم هز رأسه، وقال:

«نعم... لذلك الفضول يا شاب، أن تعرف، أن تتساءل، أن لا تصدق كل شيء كما يقول الناس... هذا ما يجعل الإنسان مختلفًا عن بقية البشر. أحيانًا المعرفة لا تأتي من الكتب وحدها، بل من النظر بعينك في

الواقع ومقارنة ما يقال بما ترى.»

زكرياء أغمض عينيه للحظة، وتحدث بصوت منخفض:
«أشعر أنني هنا لأرى الحقيقة بنفسي... لأختبر الواقع خلف الأسطورة... لأعرف كيف يربط البشر ما يراه بعقولهم وما يصدقونه بقلوبهم.»

الرجل ابتسم وقال:

«هذا بالضبط ما يجب أن تسعى إليه... ليس لتغيير كل شيء، بل لتفهمه. لا تدع القصص تعمي بصيرتك، ولا تدع العقل يقتل روحك في الوقت ذاته... اجمع بين الاثنين.»

ثم أشار إلى الأفق، حيث تتلاشى ألوان الغروب في الظلال، وقال:

«انظر، يا شاب... الناس يعيشون في هذه الظلال منذ آلاف السنين. كل شيء معقد، كل شيء مغطى بالقصص... وكل من يفكر يكتشف شيئًا يختلف عن الآخرين. إذا أردت أن تفهم الخلود، عليك أولاً أن تفهم هذه المدينة، هذه الأساطير، هذه العقول.»
جلس زكرياء صامتًا، مستوعبًا كل كلمة، وكل معنى.

كان يعرف أن هذه اللحظة، هذا الحوار الطويل، هو أول درس حقيقي في رحلته نحو العظمة والخلود.

بعد أن أنهى زكرياء حديثه أمام الناس، لاحظ الرجل العظيم أنه مختلف، أن قلبه وعقله لا يشبهان باقي الشبان.
ابتسم له وقال:

«تعال معي بعيدًا عن الجموع، يا شاب. سأخبرك من أنا... أنا سقراط، فيلسوف هذه المدينة، مَن يقف على حدود المعرفة ويحاول فهم الإنسان والعالم.»

توقف زكرياء للحظة، قلبه يخفق بعنف، لكنه لم يبدِ أي خوف.

«سقراط... الفيلسوف العظيم؟» تمتم في داخله، ثم قال بصوت هادئ:
«لقد قرأت عنك... لكن لم أظن أنني سأقف أمامك حقًا.»
ابتسم سقراط، وقال:

«الكتب تحمل فقط صدى ما كنت أفكر فيه... أما أنت، فستعرف الحقيقة إذا كنت مستعدًا لأن تنظر بعينيك وعقلك معًا.»
قاد زكرياء إلى شارع ضيق مظلل بين أعمدة نصف مهدمة، وجلسا على صخرة كبيرة بعيدًا عن الناس.
بدأ سقراط الحديث بهدوء:

الرجل : سأخبرك من أنا... أنا سقراط، فيلسوف هذه المدينة، مَن يقف على حدود المعرفة ويحاول فهم الإنسان والعالم.»

توقف زكرياء للحظة، قلبه يخفق بعنف، لكنه لم يبدِ أي خوف.

«سقراط... الفيلسوف العظيم؟» تمتم في داخله، ثم قال بصوت هادئ:
«لقد قرأت عنك... لكن لم أظن أنني سأقف أمامك حقًا.»
ابتسم سقراط، وقال:

جلس زكرياء على الصخرة، وسقراط أمامه يراقبه بعينين مليئتين بالفضول، وكأنهما يريان كل خفايا الروح.

ابتدأ سقراط الحديث بصوت هادئ لكنه حاد:

«يا زكرياء، انظر حولك. هذه المدينة منذ قرون تحتضن الناس، وكل حجر فيها يحكي قصة، كل شارع يردد أسطورة.
لكنهم يؤمنون بما لا يرون، ويتركون عقولهم لتُحكم بما ورثوه عن الأجداد.»
زكرياء أدار رأسه نحو المدينة، وقال:

الناس مجتمعون هنا بكثرة حقا، يبدو لي أنك تريد الذهاب لنصحهم مجددا

سقراط : توقيت ممتاز ! تعال معي بسرعة

مع اقتراب الليل، عاد سقراط وزكرياء من الزقاق الضيق نحو ساحة المدينة، حيث كان الناس لا يزالون متجمعين حول الأعمدة الرخامية، يتهامسون عن الآلهة ونذرهم للمعابد.
وقف سقراط فجأة في وسط الساحة، ورفع صوته قائلاً:

«أيها المواطنون! هذا الشاب الغريب الذي ترونه أمامكم... سأختبر عقله الآن، أمامكم جميعًا، كما اختبرتُ عقولكم يومًا.»

سرت همهمة مفاجئة بين الحشود، بعضهم سخر، وبعضهم نظر إلى زكرياء بعينين قلقتين.
وقف زكرياء في منتصف الدائرة، وسقراط يحدق فيه بصرامة هادئة وقال:

«اسمعني جيدًا، يا زكرياء... السؤال ليس عن كتب أو نظريات، بل عن الحقيقة نفسها.»

«رجل في مدينتنا قدّم قربانًا ضخمًا إلى زيوس، وطلب أن تتوقف العواصف عن تدمير حقوله.
في اليوم التالي، توقفت العواصف تمامًا.
الناس هنا يقولون إن زيوس استجاب له.
لكن أنت... كيف تفسّر ذلك؟»

سكتت الساحة كلها. لم يعد هناك صوت سوى الريح.
تنفّس زكرياء ببطء،ثم قال:

«سأفسّر ذلك بثلاث احتمالات...
الأول: أن توقف العواصف كان صدفة طبيعية، فالعواصف لا تدوم إلى الأبد، ولها دورة معروفة.
الثاني: أنه ربما بالغ في وصف ما حدث، وربط التوقف بالفعل بعد القربان فقط لأنه أراد تصديق ذلك.
والثالث: حتى لو ظن أن زيوس استجاب، فلا يوجد برهان على أن زيوس موجود أصلاً... ما حدث ليس دليلاً بل مصادفة ألبسها ثوب المعجزة.»
ارتفعت همهمات الدهشة في الساحة، وبعض الوجوه تراجعت للخلف، كأنهم سمعوا تجديفًا خطيرًا.

«وماذا لو كان الناس سيغضبون من هذا التفسير؟»

قال زكرياء بثبات:

«الحقيقة لا تخضع لغضبهم... من يخاف غضب الناس أكثر من خوفه من الجهل، لن يعرف الحقيقة أبدًا.»

ساد الصمت التام، حتى سقراط نفسه صمت للحظة، ثم اقترب ووضع يده على كتف زكرياء، وقال بصوت منخفض يسمعه هو فقط:

«الآن بدأت أولى خطواتك نحو الخلود ... لقد جرؤت أن تقول الحقيقة في حضرة الوهم.»

ثم استدار سقراط نحو الحشود وصاح:

«هذا الشاب علّمكم الليلة أن العقل يمكنه مواجهة الخوف...
تذكّروا ذلك جيدًا.»

وتفرّق الناس بصمت، بينما زكرياء وقف في وسط الساحة، يشعر

بشيء غريب ينمو في داخله... لم يكن فخرًا، بل هدوءًا جديدًا، هدوء من يعرف أنه بدأ يقترب من الحقيقة.
ركض ثلاثة رجال غاضبين عبر أزقة المدينة الرخامية، وهم يلهثون من شدة الانفعال، حتى وصلوا إلى بوابة المعبد الأعظم في قلب أثينا.
دخلوا وهم يصرخون:

«أيها الكهنة! لقد تجرّأ غريب على إنكار استجابة زيوس للقرابين! أمام الجميع! وسقراط نفسه كان إلى جانبه!»

ارتفعت وجوه الكهنة من لفائفهم المقدسة بحدة، أحدهم كان طاعنًا في السن بعمامة أرجوانية ثقيلة، وآخر شاب حاد النظرات يضع قلادة ذهبية ضخمة.
نهض كبيرهم، ذو اللحية الفضية المتدلية حتى صدره، وقال بصوت جهوري:

«هذا لا يُغتفر... لا يمكن أن تُترك بذور الشك تنتشر بين الناس.»
كان اسمه أرخيليوس، أقدم كهنة المعبد، يُلقّب بـ"لسان زيوس".
إلى جانبه وقف كاليستوس، الكاهن الشاب الذي يحفظ الملاحم عن ظهر قلب، ومينون، العرّاف الصامت الذي يُقال إن بوسيدون يهمس له في

الحلم.
انطلقوا سريعًا نحو ساحة المدينة، والرجال الغاضبون يسبقونهم، حتى بدأ الناس يتجمعون حولهم من كل أحياء أثينا، تترك النساء جرار الماء، والتجار يغلقون أكشاكهم، ليشهدوا ما سيحدث.

عندما وصل الكهنة، كان زكرياء وسقراط لا يزالان في وسط الساحة.
توقّف أرخيليوس أمامهما، وعيناه تشتعلان:

«سقراط... هل بلغ بك التمرد أن تُعلّم الغريب إنكار الآلهة في أرضهم؟!»

تقدّم سقراط بخطوة هادئة وقال:
«لم نُنكر، يا أرخيليوس... بل سألنا، والفرق بين الإنكار والسؤال هو الفرق بين الظلام والنور.»

لكن كاليستوس صرخ:
«كفى فلسفة ملتوية! هذا الغريب استهزأ بآلهتنا، أمام أعين أبنائنا، وقال إن توقف العواصف لم يكن بفعل زيوس!
إذا لم يكن زيوس... فمن إذًا يا هذا؟!»

سكتت الساحة تمامًا، والعيون كلها على زكرياء.
شعر بصدورهم تضغط عليه من كل الجهات، لكن قلبه كان ثابتًا كالصخر.
تنفّس ببطء، ثم قال بصوت مرتفع وواضح يسمعه كل من في الساحة:

«لم أقل إن الآلهة ليست موجودة... قلت فقط إن لا أحد منكم قدّم برهانًا على أنهم هم من يحرّكون الطبيعة.
الرعد لا ينتظر القرابين... العواصف لا تنصت للتراتيل... وأنتم لم تختبروا الحقيقة، بل كررتم ما قيل لكم، دون أن تنظروا بأعينكم.»

ضجت الساحة بصيحات صدمة، ووجوه ارتدت للخلف، بينما أرخيليوس تقدم نحوه ببطء كمن يسير فوق جمر:

«تتهمنا بالجهل يا صبي؟ نحن نخدم المعبد منذ أجيال!»

فقال زكرياء بثبات:
«أن تخدموا ما لا تفهمونه لا يعني أنكم تعرفونه...
أن تحفظوا كلمات دون أن تعرفوا معناها... أن تتوارثوا الإيمان دون أن تختبروا الحقيقة...

هذا ليس علمًا ولا معرفة، هذا تكرار فارغ.»

ارتفعت الأصوات من كل مكان، وبعض الحراس وضعوا أيديهم على سيوفهم، لكن سقراط رفع يده، وصوته يخترق الضوضاء:

«اهدؤوا! أنتم تخافون السؤال لأنكم تعرفون أنه سيهز أساس إيمانكم... لكن من يهرب من السؤال، لا يملك إيمانًا حقيقيًا، بل قفصًا ذهبيًا من الكلمات.»
سكتت الجموع، وكأن الكلمات سقطت عليهم كحجارة ثقيلة.
نظر أرخيليوس حوله، ثم إلى زكرياء وقال بصوت خافت لكنه مرعب:

«حسنًا... إن كنت تظن أنك تفهم الحقيقة... فلنحاكمك بها أمام المدينة كلها.
غدًا، مع شروق الشمس، ستقف في ساحة الأكروبوليس، أمام الكهنة والشيوخ وأهل أثينا... لتثبت أن العقل أقوى من الآلهة.»

ثم استدار بعنف، وخرج الكهنة وسط حراسة ثقيلة، والناس تفرقوا ببطء، يتحدثون عن الغد كمن يتحدث عن زلزال قادم.
أما زكرياء، فوقف صامتًا بجانب سقراط، ينظر إلى الأكروبوليس

البعيد في الأفق، وعيناه تشعان ببريق حماس و لهفة لم يعهدها من قبل قط.

لم يعد الأمر مجرد حوار، بل معركة علنية بين العقل والإيمان، في قلب أثينا.

صباح اليوم التالي مباشرة بعد مناظرته الأولى في السوق، كانت أثينا كلها تموج بالهمسات كما تموج الرياح في الميناء.

في الأزقة الضيقة قرب معبد أثينا، كان شابان يسيران وهما يتحدثان بخفوت:

— «هل رأيتَه البارحة؟ ذاك الغريب... كأنه يتكلم بعينين من نار.»
— «قال إن زيوس ليس من يحرك العواصف! لو سمع الكهنة هذا لجنّ جنونهم...»

قرب ساحة الأغورا، جلس ثلاثة شيوخ على مقعد رخامي يتجادلون بصوت منخفض:

— «أقسم إنه فيلسوف من طينة سقراط نفسه، ربما أحد تلامذته الخفيين.»
— «لا، لا... سمعت من بحّار أنه جاء من الشرق البعيد، من أرض لا تؤمن بآلهتنا، يسمونها بلاد الشمس.»
— «بل هو رسول أرسلته الآلهة نفسها لتختبر صبرنا!»

وضمن جموع الباعة، كانت فتاة صغيرة تهمس لأختها وهي مسرعة:

– «ما اسمه؟»
– «قالوا زكرياء... لكن صوته غريب قليلا.»

ثم ارتفعت فجأة ضجة بين الناس عندما مرّ مبعوث من مجلس الشيوخ وهو يصيح:

«بأمر من البوليه... على الغريب المدعو زكرياء أن يحضر عند الفجر إلى الأكروبوليس، ليحاكم فكره أمام أعين المدينة كلها!»

توقف كل شيء: حتى نقر المطارق على النحاس خفت، وصوت الحمام على الأسطح بدا وكأنه ينصت.
مع خيوط الفجر الأولى، خرجت المدينة كلها.
كل الدروب المؤدية إلى هضبة الأكروبوليس امتلأت بالجموع: بحّارة يجرّون أذيال ملابسهم، صبيان يركضون حفاة بين الأرجل، شيوخ يتكئون على العصيّ، وفلاسفة يكتبون ملاحظات على ألواح شمعية خشية أن تضيع كلمات هذا اليوم.

في الأعلى، بين أعمدة البارثينون البيضاء، نُصبت منصة حجرية ضخمة تحيط بها رايات المدينة الذهبية.
جلس في الوسط مجلس الشيوخ (البوليه) بخمسين شيخًا يرتدون التوغات القرمزية، وخلفهم وقف ثلاثة من كبار كهنة المدينة:

أرخيليوس، كبير الكهنة

كاليستوس، حافظ الملاحم

مينون، العرّاف الصامت

وقف سقراط بجانب زكرياء الرياح أمامهم، فيما الشعب يملأ الساحة كبحر من الرؤوس والأعين اللامعة.
ضرب كبير الشيوخ بعصاه الخشبية الأرض ثلاث مرات، فخيم الصمت.
قال بصوت عميق متزن:

«أيها المواطنون، لقد شاع بيننا أن هذا الغريب، زكرياء، قد أنكر أن الآلهة تحرّك العواصف، وزعم أن العقل كافٍ لفهم الكون...

41

اليوم، أمام أعيننا جميعًا، سيحاجج كبار كهنة مدينتنا.
فإن أقنعهم تركناه بسلام، وإن فشل... حُفر اسمه في سجل المجانين،
وطُرد من أسوار أثينا.»

وأشار بيده إلى الكهنة وقال:

«ابدأوا أنتم.»
تقدّم أرخيليوس ببطء، بردائه الأبيض يتمايل كغيمة:

«أيها الأثينيون...
لقد خضنا مجاعات وأوبئة وزلازل، وكل مرة كنا نقدّم القرابين
ونبكي أمام زيوس، ثم تنقشع الكارثة.
أهذه مصادفة؟
حتى قبل ثلاثين عامًا، عندما ضرب الطوفان سهولنا، دعونا الآلهة فانحسر
الماء في ثلاثة أيام.
لو لم تكن الآلهة تشفق علينا، من كان ليوقف هذا الجنون الكوني؟»

تعالت صيحات الإعجاب من الجمهور:

— «صدقت!»

— «لقد كنت هناك وقت الطوفان!»

— «هذا برهان لا يخطئ!»

تقدم زكرياء ببطء، وصوته يقطع الضجة كحد السيف:

«يا أرخيليوس...

أن تتعافى المدينة بعد القرابين لا يثبت أن القرابين هي السبب.

كل كارثة تنتهي في وقت ما... لكنكم تضعون النهاية فوق مذبح الآلهة كي تشعروا أنكم لم تكونوا بلا حيلة.

لو كانت صلاتكم هي ما أوقفت الطوفان، فلماذا لم توقف الزلازل قبل أن تقتل الأطفال؟

إن كنتم صادقين، لماذا لا تمنعون المرض قبل أن يبدأ؟»

سكت الجمهور لحظة، ثم دوّى صوت شاب من الخلف:

— «إنه يسأل ما لم نجرؤ على سؤاله!»

ورد شيخ غاضب:

— «وقح!»

ابتسم سقراط بطريقة هستيرية مجنونة، كأنه يسمع موسيقى جديدة لأول مرة.
اندفع كاليستوس بخطى سريعة ورفع مخطوطة جلدية قديمة، صوته يهز الهواء:

«منذ هوميروس وهسيود، الملاحم تقول إن الآلهة يقررون مصائر البشر، يقفون في صفوف المعارك، يمسكون بأقدار الملوك.
هذه القصص بقيت ألف عام، وانتقلت من جيل إلى جيل دون انقطاع.
أيمكن أن تكذب كل تلك الأجيال؟
ألا تثبت ذاكرتهم أن الآلهة حقيقية؟»

صفق الجمهور بحرارة، وصرخت فتاة من أعلى السلالم:
— «إنها شهادة الأسلاف!»

أجاب زكرياء بعينين ثابتتين:

«الذاكرة ليست برهانًا، بل صندوق أوهام.
الناس آمنوا يومًا أن الشمس عربة نارية يجرها إله، وأن الأرض مسطحة كالقرص... ثم سقطت تلك المعتقدات عندما اختبرناها.

طول عمر الفكرة لا يجعلها صحيحة، بل يدل على أن الناس خافوا زوالها.
الحقيقة لا تُقاس بعدد من يصدقها... بل بقدرتها على الصمود أمام الاختبار.»

تبادل بعض الشبان النظرات بذهول، وصاح أحدهم:

— «لم يقلها أحد من قبل بهذه الجرأة!»
بينما تمتم شيخ بجانبه:
— «ربما... ربما هوميروس كان شاعرًا فقط لا نبيًا... »

احمر وجه كاليستوس وصرخ:

«إنك تستخف بعظمة الأسلاف!»
لكن صوته تلاشى أمام موجة الهمس التي بدأت تهتز في الجمهور.

رفع مينون رأسه أخيرًا ببطء كمن استيقظ من قرن نوم، وصوته يخرج وكأن الريح تتكلم من داخله:

«ليالي القمر تشهد لي...
رأيت في المنام موت الحاكم السابق، وقد حدث بعد أيام.
رأيت سفينة تغرق في عرض البحر، فغرقت فعلاً
من أين لي هذا العلم إن لم تكن الآلهة همست لي؟»

شهق البعض في الجمهور، وقالت امرأة مهيبة:

– «كنت هناك... لقد تنبأ فعلاً بموت الحاكم... »

لكن زكرياء لم يرمش حتى، ورد كالصاعقة:

«رؤية موت شيخ مريض ليست نبوءة بل احتمال راجح.
لو كانت الآلهة تمنحك علم المستقبل، لأخبرتك من يخلفه، ومتى تهب الرياح، ومتى تنكسر السفن...
لكنك لا ترى إلا ما يسهل تخمينه بعد فوات الأوان.
إنك لا تسمع الغيب، بل تنتقي صدفة صحيحة من بين ألف صدفة فاشلة ثم تنسى كل ما أخطأت فيه.»

ضحك بعض الفتيان بصوت عالٍ، فوبّخهم شيخ:

– «اصمتوا! هذه ليست مسرحية!»

لكن صبيًا صرخ:

– «بل إنها أعظم مسرحية في حياتي!»

ارتعش فك مينون صامتًا كمن يبتلع خيبته.

تقدم زكرياء خطوة إلى الأمام، وساد صمت رهيب كأن المدينة كلها انحنت كي تسمع صوته.

ارتفعت نبرته ببطء كجرس برونزي:

«أيها الأثينيون...

انظروا حولكم: الأعمدة، الجسور، السفن، الآلات... كلها من صنع العقل البشري.

لا صلاة بنت حجرًا واحدًا من البارثينون.

لو كانت الآلهة تدير العواصف، فلماذا تضرب الصواعق بيوت الفقراء ولا تميزها عن المعابد؟

لماذا يموت الأطفال بالجوع بينما السمين يعيش؟

لا أقول إن الآلهة غير موجودة... بل أقول:

إن وُجدوا فهم لا يحركون الأشياء بدلاً عنّا.

العقل هو اليد الوحيدة التي تبني العالم.»

وقف الجمهور كأنهم تماثيل، ثم بدأ همس ضعيف:

– «إنه يمزّق الوهم... »
– «كلامه أخطر من سيوف سبارطة... »
– «لكن... إنه منطقي جدًا... »

رفع سقراط يده وقال بهدوء، كمن يختم نشيدًا:

«اليوم، شهدتم مولد العقل مرة أخرى.»

وانفجرت الساحة بالتصفيق والهتاف، ودوّى الرخام تحت أقدام الآلاف.
وقف كبير الشيوخ وقال بصوت جهوري:

«لقد دافعت عن فكرك لا بالصراخ بل بالبراهين.
أثينا لا تطرد من يوقظ العقل... بل تحميه.
باسم البوليه، نعلنك من أصدقاء أثينا الأحرار.»
دوّت صيحات الناس في السماء، واهتزت أعمدة البارثينون بصدًى لم تعرفه من قبل.
أما زكرياء، فظل واقفًا بصمت، ينظر إلى تمثال أثينا العاجي الذهبي خلفهم... و كأن الوقت حان لزوال أشياء أعاقت المجتمع اليوناني لأجيال.

كانت أثينا في اليوم التالي أشبه بخلية نحل هائجة.
لم يعد أحد يبيع أو يشتري، حتى باعة الزيت نسوا أن ينادوا على بضاعتهم.
كل شيء صار حديثًا واحدًا: زكرياء.

في زوايا الأغورا، احتشدت جماعات من الشباب يتهامسون بحماسة:

— «هل سمعتم قوله عن أن القرابين لا توقف الزلازل؟»
— «أجل... جعل أرخيليوس يصمت كطفل.»
— «إنه لم يهزم الكهنة فقط، بل هزم الخوف ذاته.»

في الجانب الآخر من السوق، جلس شيوخ غاضبون يهزون رؤوسهم:

— «هذا الشاب خطر... كلمات كهذه تزرع الشك كالوباء.»
— «إن هدمنا خوف الآلهة، من يمنع الفوضى؟»
— «سيسقط النظام، وستنهار المدينة.»
بين الأزقة الضيقة، كان أطفال يرسمون وجه زكرياء بالفحم على الجدران، ويكتبون تحته:
«العقل هو اليد الوحيدة التي تبني العالم.»

بينما في باحة المعبد، وقف كاليستوس يخطب في جمع من المتعبدين:

«أيها الناس، لا تنخدعوا بسحر الكلام...

كل من ترك إيمان الآباء، ضاع في العدم.

إنه يلمع كالنار، لكن النار تحرق من يقترب.»

لكن أصوات التذمر كانت ترتفع من بين الحشود:

— «لقد سئمنا الركوع...»

— «لماذا نخاف من السؤال؟»

— «ألم يقل سقراط نفسه: الحياة غير المفحوصة لا تستحق أن تُعاش؟»

وفي بيت بسيط قرب الأكروبوليس، جلس سقراط مع زكرياء وحولهما صمت كثيف.

قال سقراط، وهو يحدق في الأرض:

«لقد أيقظتَ ما لم نجرؤ على لمسه منذ قرون.

كلماتك كسرت القيد... لكن المدينة ليست مستعدة بعد.»

ابتسم زكرياء، وصوته مرتفع هذه المرة :

«لن تكون مدينة ما مستعدة أبدًا...
لكن الشرارة لا تنتظر إذنًا من الحطب.»

ثم وقف، وبدأت حوله خيوط ضوء تتراقص كشرر معدني في الهواء.
ارتفع شعره مع الريح التي لم تهب، وارتجفت جدران الغرفة كأن الزمن نفسه انكمش حوله.

شهق سقراط:

«ما هذا...؟»

قال زكرياء وهو يتلاشى في العدم:

«الزمن طويل... والعقل قصير.
سأبحث عن زمن يستحقه.»

وانفجر ضوء أبيض عميق، صامت لكنه صاعق،
وحين انطفأ...
كان الكرسي أمام سقراط فارغًا.

لكن فوق ضجيجهم جميعًا ...
ظل صدى صوت زكرياء يتردد في رأسه:

«العقل هو اليد الوحيدة التي تبني العالم.»

هبط زكرياء الرياح وسط ساحة عريضة تحيط بها أعمدة حجرية ضخمة محفورة بنقوش المعارك.
كانت رايات مقدونيا ترفرف في الهواء كأجنحة نسر هائل، والجنود يلمّعون خوذاتهم البرونزية حتى تلمع كشمس مصغّرة.

كانت بيلا، عاصمة مقدونيا، تضجّ بالطبول والأغاني العسكرية، والناس يتهامسون في الطرقات عن غزوات قادمة وعن مدن ستسقط قبل أن ينتهي الصيف.

في السوق، كان ثلاثة تجار يتجادلون بحماس:

— «سمعت أنه سيغزو الفرس قريبًا، كل آسيا ستركع عند قدميه!»
— «لقد فتح نصف العالم وهو في العشرينات فقط!»
— «الإسكندر ليس إنسانًا... بل شعلة تمشي على قدمين.»

بينما كانت مجموعة من الفلاسفة الشباب يتجادلون قرب تمثال فيدياس:

— «الخلود لا يُؤخذ بالسيف بل بالفكر، لكن من يجرؤ أن يقولها علنًا؟»

– «لو قلتها، لقطعت رأسك في الساحة.»

توقف زكرياء وسط الزحام، ورفع رأسه إلى القصر الأبيض فوق التلة.
تمتم بصوت خافت:

«هل يخلد المرء بفتح المدن... أم بفتح العقول؟»

ثم اتجه نحو البوابة الملكية، والجنود المدججون بالرماح يحرسونها.
وقف أمامهم بثبات وقال:
«أريد لقاء الإسكندر الأكبر.»

انفجر الجنود ضاحكين:

– «و أنا أريد أن أكون زيوس!»
– «هل معك جيش من عشرة آلاف فارس؟»
– «اذهب إلى السوق، هناك من قد يصغي إليك.»

حاول أحدهم دفعه بعنف فثبت مكانه، لكنهم في النهاية طردوه خارج البوابة وهم يتهامسون:

– «أحمق... يظن نفسه نداً للبرق.»

جلس زكرياء على حجر ضخم أسفل التلة، يحدّق في الغيوم المتجمعة.

كانت داخله نار لا تهدأ،

صوتٌ داخلي يهمس:

«إن لم يفتح عقله... فما نفع أن يفتح العالم؟»

وفجأة، دوّى صوت الأبواق الملكية.

هرع الناس إلى جانبي الطريق.

خرج موكب هائل من البوابة:

فرسان بجلود النمور، رايات مغطاة بالذهب، وعربة يجرّها أربعة خيول بيضاء بعيون سوداء لامعة.

وفي وسط الموكب، كان الإسكندر الأكبر نفسه: شاب عريض الكتفين، عيناه كجمرتين في عاصفة، يرتدي درعًا من الفضة وخنجرًا منقوشًا برؤوس أسود.

تقدم زكرياء خطوة وسط الحشود، ورفع صوته عاليًا فوق الضجيج:

«أيها الإسكندر... امنحني دقائق من زمنك، لأحدثك عن زمنك!»

شهق الناس.

أسرع الجنود نحوه وهم يصيحون:

«تراجع أيها المجنون!»

لكن الإسكندر رفع يده فتوقفوا في أماكنهم كتماثيل.

حدّق في زكرياء بفضول، ثم قال بصوت هادئ لكنه يخترق العظام:

«من أنت... لتجرؤ أن توقف موكب من يسير لامتلاك العالم؟»

أجاب زكرياء بعينين لا ترتجفان:

«أنا من يسير لامتلاك نفسه.»

ساد صمت ثقيل... ثم أومأ الإسكندر بيده.

تحرك الموكب إلى الساحة، وأشار له أن يتبعه.

جلس الإسكندر على عرشه المحمول، بينما التف حوله عشرات القادة، وصار الميدان كله كحلبة.

قال الإسكندر:

«تكلم إذن، أيها الغريب...

ولْيكن كلامك أثقل من الحديد الذي نحمله.»

وبدأت المناظرة التي ستشقّ تاريخ مقدونيا نصفين.

كانت الشمس في كبد السماء كقرص نحاسي يلمع فوق خوذ الجنود،
وفي وسط ساحة بيلا، وقف الإسكندر على منصة عالية تحيط بها أعمدة الرخام،
وأمامه زكرياء الرياح، بثوبه البسيط، لا يحمل إلا صوته.

كان الجنرالات مصطفّين كتماثيل من الحديد خلف الإسكندر،
والناس قد ملؤوا الميدان حتى لم يبق موضع قدم،
العيون متسعة، القلوب تخفق كطبول الحرب.

قال الإسكندر بصوته العميق الرنان:

«منذ كنتُ طفلاً، كنتُ أسمع همسًا في داخلي:
لا تكن ظلاً في كتاب أحد ... كن الكتاب نفسه.
لهذا أسير، وأفتح، وأُخضع المدن.
فهل تعرف وسيلة أخرى يخلّد بها الإنسان اسمه؟»
وأجاب زكرياء بصوت هادئ لكنه يخترق كالسيف:

«المدينة التي تُخضعها، ستنهض يومًا وتنسى اسمك،
لكن الفكرة التي تغرسها، قد تنمو حتى في قلوب أعدائك.»

ارتفعت همهمات بين الجمهور، وصرخ أحد الجنود ساخرًا:

– «كلمات لا تفتح الحصون!»

ضحك الإسكندر ضحكة قصيرة كأنها ومضة برق:

«الفكر لا يفتح الأبواب... السيوف تفعل.
انظر إليهم كل هؤلاء الجنود يحملون اسمي على راياتهم.
في كل أرض أدخلها، يرتجف الملوك من اسمي قبل أن يروني.»

تقدم زكرياء خطوة إلى الأمام، ونظر في عينيه بثبات:

«لكن اسمعني، يا من يريد أن يملك العالم:
الخوف لا يبني تماثيل...
بل يهدمها بعد رحيل من أخافهم.»

ساد صمت ثقيل... ثم صاح كاليستون، أحد كبار القادة:

– «جرأة عجيبة! يتكلم مع ابن زيوس كأنه ندّه!»

«تريد أن تكتب اسمك في الذاكرة... وأنا أكتبه على الأرض.
أنت تحارب النسيان بالفكر، وأنا أحاربه بالنار.
فمن سيفوز؟»

قال زكرياء:

«الفكر لا يفوز... بل يبقى.
أما النار، فتفوز سريعًا... ثم تنطفئ.»

ارتفعت ضجة هائلة في الساحة،
الجنود يصرخون «الإسكندر خالد!»،
والفلاسفة يهمسون «زكرياء صادق...».
رفع الإسكندر يده فخيم الصمت مرة أخرى.
اقترب من زكرياء حتى صار وجهاً لوجه وقال بصوت خافت لا يسمعه إلا هو:

«ربما... نطلب الشيء نفسه، يا غريب،

لكني أسلك طريقًا يحرقني، وأنت تسلك طريقًا يذيبك.
فلنرَ أيُّنا يصل أولاً.»
قاد الإسكندر زكرياء عبر أروقة قصره في بيلا.
كان القصر كأنه مدينة داخل مدينة:
حدائق معلّقة على الشرفات، أرضيات رخامية مطعّمة بالفضة،
وجدران منقوشة بتماثيل انتصاراته في آسيا الصغرى.

كان صوته يرنّ في القاعة الفسيحة وهو يقول :
«لقد أثرت فيّ، أيها الغريب... لكن الكلام لا يكفي
لأجلسك إلى جواري.
في مملكتي، الفكر الذي لا يُترجم إلى فعل... لا يُساوي رمحًا مكسورًا.»

دخل الاثنان قاعة العرش، حيث وقف صفان من الحرس بوجوه صخرية،
وجلس الإسكندر على عرشه المرتفع كأنه نسر فوق جبل،
وأشار إلى وسادة حجرية بجانبه:
«اجلس هنا... إن استطعت أن تحكم بالعدل أمام عيني.»

عندها، أدخل الجنود رجلين يتجادلان بعنف حتى كادت ألسنتهم تشتعل.

قال القائد المناوب وهو يقرأ من لوح طيني:

«هذان هما كليتوس ابن نيرون، ودامون ابن ثيرون.
يتنازعان على قطعة أرض على الحدود الشمالية للمملكة.
كل منهما يدّعي أن الأرض أرضه... وكل منهما يحمل دليله.»

تقدّم كليتوس، وجهه محتقن بالغضب:

«أيها الملك العظيم، تلك الأرض زرعها أبي بيديه منذ ثلاثين عامًا.
ترك لي فيها بئراً وبستان زيتون... وقد حُرقت أثناء الغزو،
لكن جذور أشجارنا ما زالت تحت التراب تشهد لنا.
ثم جاء هذا الرجل وادعى أن الأرض له لأنه اشتراها من الحاكم العسكري الذي احتلها أيام الحرب!»

صرخ دامون بدوره، وجهه متورد من الحنق:

«ذلك الحاكم كان ممثلاً للملك!

دفعته بالذهب من مالي، ولديّ شهادة مختومة من جنرالك بارمينيون نفسه.

إن لم تكن الأرض لي... فهل يُباع ما لا يُملك؟»

تململ الإسكندر في عرشه، وابتسم وهو يلتفت إلى زكرياء:

«أرأيت؟

أرض واحدة، ورجلان... وكلاهما يظن نفسه صاحب الحق، وكلاهما يحمل دليلاً

احكم بينهما، أيها الحكيم...

أو عدّ كلماتك التي قلتها في الساحة ريحًا في يوم صيف.»

ساد صمت ثقيل في القاعة.

كل العيون اتجهت إلى زكرياء.

أغمض عينيه برهة، ثم قال بصوت هادئ :

«الأرض ليست من يملكها... بل من تعود إليه بعد أن نغيب كلنا.
لكن بما أنكما حيان، فاسمعا:
كليتوس يملك جذور الزيتون التي لا تُرى، ودامون يملك الورق الذي يُرى.
أما العدالة، فهي أن نربط ما يُرى بما لا يُرى.»

رفع رأسه نحو الإسكندر وتابع:

«ليزرع كليتوس أرضه من جديد كما فعل أبوه،
وليموّل دامون الزرع من الذهب الذي دفعه للحاكم،
فتكون الأرض مشتركة بين جذور الأجداد وثمار الأحياء.
فإن نجح الزرع، قسمتم الأرض نصفين بالثمر...
وإن فشل، فهي أرض لا تريد أحدًا.»

سرت همهمة بين القادة الجالسين.
قال أحدهم مبهوتًا:

— «يا للآلهة... جعل الخلاف تحالفًا.»

وانحنى دامون ببطء، ثم تبعه كليتوس، وقد هدأ وجهاهما كمن وضعت عن كاهليه نارًا.
أما الإسكندر، فظل صامتًا لحظة طويلة، ثم انفجر ضاحكًا :

«أيها الغريب... جعلتني أرى العدل كأنه حيلة حرب.
من اليوم... ستكون جليسي في هذا القصر.»

ثم التفت إلى الحراس وقال:

«اكتبوا في سجل المملكة: زكرياء الرياح، صديق العرش.»

وصفق الجميع في القاعة تصفيقًا واحدًا كصوت الرعد.

جلس زكرياء الرياح على الوسادة الحجرية في قصر الإسكندر،
بينما الملك نفسه جلس أمامه على العرش، وعيناه تلمعان كجمرتين في نهر من الذهب.

بدأ الإسكندر بسرد قصته، صوته عميق ورنان:

«بدأتُ غزواتي في آسيا الصغرى... فاحتللت المدن اليونانية واحدة تلو الأخرى،
ولم يكن التحدي بالجيش فقط، بل بإقناع المدن نفسها بالانضمام إليّ.
بعد ذلك، عبرت هاليكارناسوس وسينوب، وواجهت الحصون والجدران التي لم يقدر على اقتحامها أسلافنا.
ثم أتيت مصر، وركعتني أهراماتها أمام عظمتها... شعرت أنني صغير أمام التاريخ،
لكن شعوري بالخلود دفعني إلى المضي قدمًا.»

نظر زكرياء إلى الملك، وقال بهدوء:
«وهل شعرت بالخوف، أيها الإسكندر؟ هل الخوف يختبئ

خلف كل مجد؟»

ابتسم الإسكندر، وصوته أصبح أهدأ:

«أجل... شعرت بالخوف. في بابل، عندما علمت أن جيوش فارس تتجمع خلفي،
شعرت بالمسؤولية تثقل كتفي.
وفي معركة غوغميلا، كانت الأرض ترتجف تحت أقدام آلاف الخيول،
وكل لحظة شعرت أن التاريخ نفسه يراقبني...
لكن الخوف لم يمنعني، بل جعلي أكثر يقظة، أكثر حذرًا...
وأكثر جوعًا للخلود.»

أومأ زكرياء برأسه، ثم قال:

«أنت تسعى لتخلّد اسمك بالفتح والسيطرة... وأنا أريد أن أخلّد اسمي بالفكر،
لكننا نملك نفس الهدف: البقاء بعد أن يرحل الزمن.»

ابتسم الإسكندر، وعيناه تتوهجان:

«العالم كله أمامنا... وكل مدينة نفتحها، كل ملك نخضعه... شعور رائع.
لكن كل ليلة، وأنا أستلقي تحت النجوم،
أشعر بالوحدة.
فالخلود الذي أبحث عنه ليس مجرد ذكر اسمي...
بل أن يسمعني التاريخ نفسه.»

قال زكرياء، مستندًا على الوسادة:

«وأنا أشعر أن خلودي لن يكون إلا إذا فهمت العقول...
فتلك المدن التي غزتها، ربما تنسى اسمي بعد قرن...
أما فكرة واحدة أزرعها في عقل واحد، فقد تبقى آلاف السنين.»

ابتسم الإسكندر وهو يقلب في عقله:
«إذا... ربما طريقنا واحد، لكن الوسيلة مختلفة...
أنا أفتح العالم بالسيف... وأنت تفتحه بالعقل.

أحيانًا أتمنى أن يكون لدي سيف كفكر، أو عقل كسيف.»

ضحك زكرياء قائلا:

«أجل... لكن السيف ينكسر، والعقل يتضاعف.
أنت تجلس على عرش كبير... لكن عقلك؟ هل تسمح له بالتحليق؟»

ارتفعت همهمة القادة خلف الإسكندر، وعيناه تراقب الحراس، لكن صوته لم يرتجف:

«أنت غريب... تتحدث كأنك تعرف كل ما يجري في قلبي.
لكن قل لي، هل تعتقد أنني سأتمكن يومًا من تحقيق الخلود؟»

قال زكرياء، وصوته صار نغمة حادة بين الذهب والرخام:

«الخلود لا يُقاس بالمدن، ولا بالدم...
بل بما تتركه في أذهان البشر، في أفعالهم، وفي الأسئلة التي

تدفعهم ليفكروا بعد رحيلك.
أما ما يراه التاريخ، فهو مجرد صفحة، وأنت مجرد رجل كتب حروفها.»

توقف الإسكندر لبرهة، وكأن كلمات زكرياء اخترقت قلبه:
«ربما... لكني لم أجد أحدًا يستطيع أن يتحدث بهذه الجرأة، وأنا أملك السيوف.
لن تكون مجرد ضيف... بل مرشد لي، من الآن فصاعدًا.»

جلس زكرياء جنب العرش، وبدأ الاثنان في حوار يومي طويل عن الفتوحات، السلطة، الخلود، والمصير.
تبادلوا أفكارهم عن المدن التي غزاها، الملوك الذين خضعوا لهم، الشعوب التي صرخت من الخوف، والأحلام التي رافقت كل سيف وقرار.

في نهاية اليوم، ارتفع ضوء الشمس على الساحة،
وصوت الطبول الملكية يرنّ بعيدًا،
لكن ما بقي في أذهان الجميع كان ليس المجد، ولا السيوف،
بل الحوار بين رجلين يسعيان لتخليد اسميهما...

بطرقهما المختلفة، لكن بنفس الهدف.
جلس زكرياء الرياح في غرفة الخرائط بالقصر، أمام طاولة ضخمة مغطاة بالخرائط والأقلام.
الإسكندر الأكبر، متعب لكن عينيه تلمعان بالإثارة، وقف بجانبه، يتابع كل حركة.

قال الإسكندر بصوت متردد لكنه متحمس:

«هذه آخر دولة لم تخضع لي... أراضي جبلية، شعب عنيد، حُصون محصنة... كل سيفي، كل جنودي، وُضعت هنا... لكن يبدو أن القوة وحدها لن تكفي.»

ابتسم زكرياء، ونظر إلى الخرائط بعين نابغة:

«القوة ليست كل شيء، أيها الملك... أحيانًا تحتاج إلى عقلٍ يتوقع تحركات العدو قبل أن يتحرك،
ويعرف نقاط ضعفه قبل أن يعرفها هو نفسه.»

جلس الإسكندر على كرسي من الرخام وقال:

«فلتخبرني... ماذا ترى؟ كيف يمكننا فتح هذا البلد بدون حرب طويلة؟»

أشار زكرياء إلى النقاط الاستراتيجية على الخريطة:

«الجبال هنا، والأنهار هنا... أما الطريق إلى العاصمة فيمر عبر وادٍ ضيق. إذا وضعنا حامية صغيرة هنا، ونمشي بقسم من الجيش على الطريق الآخر،

فإن العدو سيُشتت، وسيظن أن هجومًا أكبر قادم من كل الاتجاهات. وفي الوقت نفسه، يمكننا إرسال رسائل مزيفة للزعيم، تخدعه بأن قواته في خطر من جهة أخرى.»

ارتجف الإسكندر بحماس:

«عبقري... بهذه الطريقة، سأسيطر على العاصمة دون خسائر كبيرة...

أيها الغريب، إنك تجعل السيف أداة للعقل، وليس العكس.»

أجابه زكرياء:

«العقل هو السيف الحقيقي...

كل ضربة بلا خطة، مجرد ضربة في الظلام.»

مرت الأيام، وتنقلت الجيوش حسب خطة زكرياء،
العدو مشوش، يرسل رسله هنا وهناك، يحاول فهم ما يحدث...
وفي النهاية، استسلم القائد أمام العاصمة، وكانت أعلام مقدونيا ترفرف فوق آخر حصن.

وقف الإسكندر على الساحة، يهتف بين جنوده:

«لقد فعلناها ... آخر بلاد!»

و قال له زكرياء بهدوء:

«لقد فعلت أنت كل شيء... لكن ما جعلك تنجح هو التخطيط. العقل يقود اليد ... وليس السيف وحده.»

تقدم الإسكندر، وأمسك بيد زكرياء:

«منذ اليوم... أنت أكثر من جليس أو مستشار... أنت جزء من قوتي، عقل وراء كل سيف.»
نظر زكرياء حوله، وشعر بوميض ضوء خافت يبدأ في التوهج من

جسده،

تمتم لنفسه بصوت خافت:

«لقد حان وقت الرحيل... الزمن لا ينتظر أحدًا.»

ارتجفت الأرض، وتلاشت أصوات الجنود،

واختفى زكرياء الرياح كما جاء... تاركًا وراءه أثر العقل والخطة،

وإسكندر الأكبر واقفًا في قلب العاصمة، يفكر في الغزوات القادمة،

لكن جزءًا من عقله سيظل دائمًا مع هذا الغريب الذي جعله يرى القوة من منظور جديد.

ارتجف الهواء فجأة حول زكرياء الرياح،
وانفتح الزمن أمامه كصفحة بيضاء، قبل أن يجد نفسه في شوارع مدينة بخارى القديمة،
حيث الأسواق الضيقة تصطف فيها أكشاك التوابل والحرير، وعبق الزعفران يملأ الجو، وأصوات الباعة تتداخل مع همهمات الناس.

توجه زكرياء إلى مطعم صغير على طرف السوق، يقدّم الخبز واللبن والتمر.
جلس على طاولة خشبية، وابتسم للبائع:

«أخبرني... من هم أشهر من يعيش هنا؟ ومن يستحق أن أسمع عنه؟»

نظر البائع إليه بابتسامة، وبدأ يسرد:

«يا ولدي... إذا أردت الحكمة، فاذهب إلى ابن سينا.
هذا الرجل أعظم طبيب وفيلسوف في زمانه،
يكتب ويعلّم، ويعالِج أمراضًا لم نستطع نحن أن نفهمها منذ سنين...

حتى الأمراء يأتون إليه، وأولاده يتعالجون على يده.»

ارتجف زكرياء في مكانه، قلبه يخفق بسرعة:

«ابن سينا... لقد قرأت له كتبًا عديدة... وفلسفته عن العقل والروح لا تزال حية في قلبي... »

ابتسم البائع، وبدأت أصوات الناس تتداخل مع حديثهما:

— «سمعت أن ابن سينا يعالج اليوم ابن الأمير... وقد أذهل الجميع بعلمه.»
— «أجل... حتى الأطباء الآخرين يتعلمون منه، ويصغون إلى نصائحه كأنها كلام الآلهة.»
— «يقولون إنه يكتب كتبًا عن الطب والفلسفة والفلك، وكل من يقرأ له يفكر بطريقة لم يفكر بها من قبل.»

شعر زكرياء كما لو أن كل كلمة تضربه صاعقة، وعيناه تتوهجان، كأنه يلمس عقلاً يشبه عقله، لكنه أكبر وأكثر عمقًا.

توجه عبر الأزقة المزدحمة، يستمع إلى الحوارات حول ابن سينا، حيث كل شخص يبدو وكأنه يروي جزءًا من أسطورة هذا الرجل العظيم:

— «ابن سينا يرى جسد الإنسان كما يرى الكون كله... كل عرق، كل نبضة، كل روح!»
— «إنه يكتب ويشرح، ويعلّم من لا يعرف، ويشفي من يعجز عن الشفاء!»

وصل زكرياء أخيرًا إلى دار ابن سينا، حيث كان الناس مجتمعين حول غرفة كبيرة،
يخرج صوت الحركات الهادئة والإرشادات الطبية، مع همهمات القلق من قبل الحاشية:

«أسرع... ابن الأمير يحتاج إلى المعالجة...
لا أحد يفهم حالته مثل ابن سينا.»

وقف زكرياء عند الباب، وأخفى نفسه بين الحضور،
ورأى ابن سينا جالسًا على سجادة صغيرة، يدرس حال الطفل بعناية

فائقة،

يضع يده على صدره، يراقب النبض، ويكتب ملاحظاته في دفتره بدقة مذهلة.

همس زكرياء لنفسه:

«هذا هو العقل الذي سبق عصره... كل ما قرأت عنه لم يكن كافيًا لأرى هذا المستوى من الحكمة والمهارة.»

استمر الناس في التحدث حوله، يثنون على علمه وإتقانه، ويطرحون أسئلة حول حال الأمير،

بينما زكرياء يراقب كل حركة، كل نظرة، وكل طريقة معالجة،

ويشعر بأن حضوره هنا ليس صدفة... بل درس جديد في قوة العقل والرحمة والخلود.

وقف زكرياء الرياح عند طرف الغرفة،

عينيه مركّزتان على ابن سينا الذي جلس أمام ابن الأمير،

يمسك بيده الصغيرة برفق، يراقب نبضه، يتفحص حرارة جسده،

يضع إصبعه على الجرح الدقيق... كل حركة محسوبة بدقة متناهية.

تمتم زكرياء في نفسه، كأنه يسجل كل حركة في دفتر خياله:

«لاحظ كيف يضع يده هنا ... ليست لمجرد اللمس، بل ليشعر بالانسجام بين الطاقة الداخلية للجسم وتوازن النبض.
وكيف يستخدم أصابعه لفحص درجة حرارة العضو... كأنها قراءة موسيقية لكل خلية.
كل حركة، كل لمسة، محسوبة بدقة كالميكانيكا الفلكية...
وما يدهنه على الجرح ليس مجرد دواء، بل فهم شامل للتفاعل بين الجسم والعقل والروح.»
تابع زكرياء كل خطوة:

«إنه لا يركز على المرض وحده... بل على العلاقة بين الأعضاء، بين العناصر، بين نبض الدم وحركة الروح...
هذا هو سر عبقريته... كل حركة هي تحليل شامل، كل قرار هو نتيجة آلاف الاحتمالات التي يقرأها في لحظة.»

حين أنهى ابن سينا المعالجة، رفع رأسه عن الطفل،
وابتسم برفق، بينما هدأ الطفل، وعادت الحياة إلى وجهه الصغير.

انهالت أصوات الجمهور، وهم يتحدثون بحماس:

– «لم أرَ أحدًا يعالج بهذه الدقة من قبل... لقد لمس كل خلية في جسده!»

– «عبقري... كل حركة كأنها معجزة، كل نظرة تحمل حلاً لمشكلة لم نفهمها نحن.»

– «إذا كتبنا التاريخ الآن، فإن ابن سينا هو أعظم طبيب وفيلسوف على الإطلاق.»

وقف زكرياء في مكانه، وابتسم داخليًا، ثم رفع صوته قليلاً ليطرح سؤالاً يتبادر إلى ذهنه منذ دخوله الغرفة:

«يا حكيم... هل يمكن أن تشرح لي كيف تعمل عدسة العين؟ كيف ترى كل التفاصيل الدقيقة بهذه الوضوح؟»

رفع ابن سينا رأسه، ونظر إلى زكرياء بعينين لامعتين بالفضول، ثم قال بهدوء:

«عدسة العين يا ولدي... ليست مجرد قطعة شفافة في الجسم... إنها منظومة تتفاعل مع الضوء، مع شبكية العين، مع الأعصاب ،

البصرية... كل شعاع ضوء يمر عبرها يتشكل، ويتحول إلى صورة كاملة في المخ.
وإذا فهمت كيف تتفاعل العدسة مع كل نقطة ضوء، فهمت كيف يرى الإنسان العالم بكل دقته... »

ابتسم زكرياء، وعيناه تتوهجان بالإعجاب:

«بالضبط ما أبحث عنه... فهم التفاصيل الدقيقة هو سر السيطرة على المعرفة نفسها.»

بدأ الحوار بين الاثنين، يمتد من تشريح العين ووظائفها إلى فلسفة الرؤية والمعرفة،
كل كلمة هي درس جديد، وكل فكرة تفتح أفقًا آخر للمعرفة،حتى أصبح زكرياء يرى الطب والفلسفة كحركة واحدة متكاملة، بينما الناس حولهم يراقبون بانبهار،
يتساءلون عن كل كلمة، ويهمسون لبعضهم البعض عن مدى غرابة الاثنين.

قال زكرياء:

«لقد شاهدت كل حركة لك أثناء معالجة الطفل... أريد أن أفهم: كيف تربط بين الجسم والروح؟ كيف تدمج المشاهدة العلمية مع الفهم الفلسفي؟»

ابتسم ابن سينا، ووضع يده على صدر الطفل:

«الجسم هو آلة، نعم... لكن الروح هي القوة التي تحركها.
إن فهم العضو بدون فهم الروح، كأنك تعرف السهم فقط ولا تعرف القوس.
كل نبضة، كل تنفس، كل شعور... جزء من المعادلة الكاملة.»

همس أحد الحضور من خلفهم:

– «يا للآلهة... إنه يرى الإنسان ككل الكون، لا مجرد جسم صغير.»

– «وهذا هو السر الذي جعل كل أطباء البلاط يهرعون إليه.»

أكمل زكرياء:

«إذا كان هذا صحيحًا، هل يمكن أن نطبق نفس الفهم على العقل؟ هل هناك قوانين تشبه قوانين الجسم تتحكم في التفكير؟»

أومأ ابن سينا:

«تمامًا... العقل كالعضو، يتأثر بالعاطفة، بالتجربة، بالعالم من حوله... الفلسفة هي الوسيلة لفهم هذه القوى والتحكم بها.
إذا فهمت كيف تؤثر العواطف على الجسم والعقل، يمكنك علاج المرضى ومعالجة النفس في الوقت نفسه.»

تبادل الناس نظرات مندهشة، وتحدث أحدهم:

– «لقد جمع بين الطب والفلسفة كأنهما نهر واحد... هذا لا يحدث كل يوم.»
– «حقًا... كل كلمة كأنها درس حياة.»

سأل زكرياء:

«وماذا عن الأخطاء؟ هل الخطأ في التشخيص مجرد نقص معلومات، أم فشل في فهم الروح؟»

ابتسم ابن سينا بحكمة:

«كلاهما... فالخطأ غالبًا يظهر عندما يغفل الطبيب جانبًا من الحقيقة.
المعرفة وحدها لا تكفي... بل يجب أن ترافقها الحكمة، والتفهم، والرحمة.»

هامس آخر من الجمهور:

— «يا إلهي... هل سمعتم هذا؟ ليس مجرد طبيب، إنه مدرس للحياة بأكملها.»

أكمل زكرياء:

«وهل يمكن للمعرفة أن تكون بلا فلسفة؟ هل يمكننا أن نطبّب بدون أن نفهم سبب المرض؟»

رد ابن سينا:

«لا... كل علاج بلا فهم فلسفي، مجرد غمغمة على الجرح.
حتى أعظم الأدوية لا تشفي إذا لم تفهم سر الجسم والروح معًا.»

همس أحد المتابعين:

— «أصبح الحديث بينهما كأننا نسمع فصلاً من كتاب لم يُكتب بعد.»
— «وكأن التاريخ كله مجتمع هنا في هذه الغرفة.»

تعمق الحوار أكثر، وتطرق ابن سينا إلى الرؤية والضوء في العين:

«انظر... عدسة العين ليست مجرد عضو... بل آلة فلسفية، تحوّل الضوء إلى صورة، والمعرفة إلى إدراك.
كل شعاع ضوء يحمل معلومة، وكل نبضة عصب توصلها إلى العقل... وهكذا يدرك الإنسان العالم.»

قال زكرياء، مغمورًا بالدهشة:

«إذاً كل شيء في الطب، من الجسم إلى العقل، مرتبط بالنظر والفهم... كل شيء فلسفة وعلم في آن واحد.»

تصاعدت همهمات الحاضرين:

— «لقد دمج بين العلم والفلسفة بشكل لا يصدق... »
— «وذلك الشاب معه... يبدو أنه يفتح نوافذ جديدة في هذا العلم!»

واستمر النقاش لساعات، بين كل حركة جسدية يقوم بها ابن سينا وبين كل سؤال فلسفي من زكرياء،
حيث أصبحت القاعة مختبرًا حيًا للعقل والفكر، والناس مندهشون من كل كلمة وكل تحليل.

في نهاية اليوم، نظر زكرياء إلى ابن سينا وقال بصوت منخفض:

«لقد علمتني اليوم أن القوة الحقيقية ليست في اليد، ولا في السيف...
بل في العقل الذي يربط بين كل شيء... بين الجسم والروح، بين العلم والفلسفة.»

ابتسم ابن سينا، وعيناه تلمعان:

«وأنت يا ولدي، تحمل ذكاءً يمكن أن يفتح أي باب... لا تدع الزمن يوقفك.»

وفجأة، ارتجف الجو حول زكرياء، وبدأ ضوء خافت يحيط به...
تمتم لنفسه:
«لقد حان الوقت للسفر... العصور تنتظر.»

وبين همهمات الجمهور وهمساتهم عن عبقرية ابن سينا و الشاب الغريب،
اختفى زكرياء الرياح كما جاء... تاركًا وراءه حوارًا خالدًا بين العقل والفلسفة، بين الطب والحياة.

ثم وجد نفسه في أوروبا في القرن الرابع عشر، في مدينة صغيرة على أطراف الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

كانت الشوارع ضيقة، مرصوفة بالحجارة الخشنة،
يطلق الحمير أصواتها عند سحب العربات الثقيلة، والناس يمشون حافين أو بأحذية بالية.
رائحة الجوع والقمامة تمتزج برائحة الخشب المشتعل في المواقد،
والأبنية منخفضة، مظلمة، جدرانها متشققة، وأسقفها مائلة من الزمن والطقس.

على الزوايا، كان بعض الأطفال يجمعون الحطب،
بينما النساء يصرخن بين بعضهن يحذرن من لصوص الليل،
والرجال يجرون حمولاتهم الثقيلة، ووجوههم شاحبة من التعب والجوع.

وقف زكرياء بجانب سوق المدينة القديمة، حيث بائعو الخبز والطعام يصرخون بأعلى أصواتهم:
— «خبز للتو، طازج! لمن لا يملك الفضة؟ له خبز من العدم!»
— «الجبن الحامض! الأجبان الحامضة لمن يدفع!»
مرّ أمامه جندي مسلح، يرتدي درعًا صدئًا، ويدوس على ظهر رجل

فقير يسرق رغيف خبز:

— «أين ذهبت يا لعنة! المال لي، والخبز للجيش!»

تمتم زكرياء لنفسه:

«كل شيء هنا مظلم... القوة تحكم بالحديد والسيف، لا بالعدل...»

اقترب من نافذة صغيرة في السوق، حيث تجمع عدد من الناس يتحدثون فيما بينهم:

— «الراهب في الدير يقول إن الطاعون غضب من الله... إذا لم تدفع المال للدير، سيأخذك الموت!»

— «أجل... وكل يوم يطلبون المزيد من الفضة من الفلاحين... حتى الغنى يُنهب والفقراء يموتون!»

— «الملك يأمر الجنود بسلب الخشب والحبوب، والكنيسة تدعي أن الطاعون عقوبة... من يصدق بعد كل هذا؟»

سار زكرياء عبر الأزقة، ولاحظ بيوت المزارعين المدمرة، حقولهم المتروكة، ورؤوس الأهل وهي متجهمة من الجوع.

كل زاوية فيها صرخة صامتة، وكل باب مغلق يحكي قصة ظلم مستمر.

رأى رجلاً مُسِنًا يصرخ في الشارع:

«لقد سرقوا كل شيء... حتى أملنا!»

وأطفالاً يلهثون خلف عجلات العربات،
يسرقون بعض الفواكه من الباعة لتجنب الموت جوعًا،
بينما الحراس يضربون كل من يجرؤ على الاحتجاج:

– «اكفوا عن البكاء... كل ما هو لكم، ليس لكم!»

توقف زكرياء، وتأمل المشهد كله بعينين واسعتي الإدراك،
تمتم لنفسه:

«هذه أوروبا ... مظلمة، خائفة، مسلوبة من العقل والحرية.
كل شيء يُحكم بالخرافة، بالسيف، بالضرائب الظالمة...
وليس هناك مكان للعقل، إلا إذا تمكن شخص ما من إشعال الشرارة.»

سمع أصوات أخرى تتداخل مع صراخ الفقراء:

«لقد أعدموا الرجل لأنه شكك في الراهب... »

– «أجل... كل من يسأل سؤالاً يُعامل كخائن... المعرفة هنا جريمة!»

– «الحاكم يفرض الضرائب، والكنيسة تحكم النفوس... لا يوجد فكر حر.»

وقف زكرياء عند مدخل دار المدينة الكبيرة، حيث كان النبلاء يراقبون المدينة من الأعلى،
يضحكون على شقاء الناس، يطلقون أوامر سريعة لتأمين أموالهم،
بينما الفقراء يئنون تحت وطأة الفقر والمرض.

تمتم زكرياء وهو يراقب:

«إذا أردت أن ترى العقل الحقيقي، فسأذهب لأجده... لا في هذه الشوارع، بل في من يُضيء النور وسط الظلام... »

وبين همهمات الناس وصوت الظلم المستمر، بدأ يشعر بوميض الزمن يتغير حوله،
ليحمله إلى فلورنسا، عصر النهضة، حيث العقل والمعرفة ينهضان من الرماد.

اختفت شوارع أوروبا المظلمة خلفه، ليجد نفسه في فلورنسا، القرن الخامس عشر،
مدينة ينبض قلبها بالفن، بالحركة، بالعلم... بعد أن كانت عالقة في الظلام.

وقف عند بوابة المدينة، يراقب المباني و التي كانت مزيج من الحجر الأحمر والأقواس العالية، نوافذها الزجاجية ملونة، تراها الشمس تتوهج بألوانها، وكأنها ألف لوحة حية.
الشوارع صراحة كانت ضيقة لكنها مزدحمة، رصيفها نظيف نسبيًا مقارنة بما رآه في أوروبا السابقة، الأطفال يركضون ويلعبون، لكن بعضهم يعمل في الورش لتعلم الحرف.
أما الأسواق فقد روائح التوابل والفواكه الطازجة والخبز الساخن تعطر الجو، الباعة ينادون بأصوات عالية، لكن وجوههم مليئة بالحياة، لا الخوف.

وقف زكرياء عند ساحة مركزية كبيرة، حيث نحت تمثال داود الشاب،الناس يتجمعون حوله، يتحدثون عن التماثيل، اللوحات، والاختراعات.
سأل زكرياء أحد الباعة:

«من هم العقول هنا؟ من يمكن أن يعلمني كيف تشرق المعرفة بعد كل هذا الظلام؟»
أجاب البائع، وهو يشير إلى ورشة ضخمة خلف الساحة:

«انظر هناك... إلى الرجل الذي يقف عند الطاولة المليئة بالكتب والرسومات...
هذا ليوناردو، عقل نابغ، يرسم ويبتكر... حتى العلماء يأتون إليه ليتعلموا أسرار الطبيعة.
أما آخرون، مثل ميكيلانجيلو، يجسدون الجسد والروح في الحجر والخشب... كل شيء هنا ينبض بالحياة.»

تمتم زكرياء لنفسه:

«هذا هو نور النهضة... بعد قرون من الظلم والخرافة، يظهر العقل، والفن، والحرية... كل شيء ينبض بالفكر والمعرفة.»

بدأ يتجول بين الشوارع و رأى ورش النحت حيث الحجار ينحتون التماثيل بدقة مذهلة.استمع إلى معلمي الرسم وهم يدرسون الطلاب كيف يرسمون الضوء والظل.شاهد العلماء يختبرون مبادئ

الهندسة، الميكانيكا، والفلك على الطاولات الخشبية المليئة بالأدوات.توقف زكرياء عند ورشة، حيث كان ليوناردو يشرح لطلابه حركة الماء في النهر،
وهو يرسم تصاميم لمروحيات مستقبلية، وآلات معقدة.
همس أحد الطلاب من خلفه:

— «كل يوم نتعلم شيئًا جديدًا... لم نعد نخاف من السؤال.»
— «أجل... المعرفة هنا حرية... والفن وسيلة لتفهم العالم.»

اقترب زكرياء، وسأل ليوناردو مباشرة:

«كيف وصلت بهذه المدينة من ظلام أوروبا إلى هذا الفيض من العلم والفن؟»

ابتسم ليوناردو وقال:

«الإرادة... والإبداع... والفكر المستقل. بعد أن شاهد البشر الظلم والخوف، بدأت الأرواح تبحث عن الضوء،
وهذا ما نفعله هنا... نعيد اكتشاف الإنسان، الكون، والفن والعلم.»

جلس زكرياء على مقعد خشبي، وبدأ يلاحظ كل حركة طريقة الطلاب وهم يكتبون ويرسمون،كيفية استخدام ليوناردو للأدوات،كيف يدمج بين الفن والهندسة، بين الملاحظة العلمية والخيال،وكيف يتفاعل الناس حوله، يطرحون الأسئلة، يختبرون أفكارهم، ويضحكون أحيانًا على أخطائهم.

فكر زكرياء في داخله:

«بعد كل هذا الظلام... بعد كل الجوع والخوف والخرافة، هنا يولد العقل...
وهنا سأتعلم كيف تتناغم المعرفة والفن، كيف يصبح الإنسان أداة للتغيير، وكيف يمكن للفكر أن يخلد الاسم أكثر من السيف أو الخوف.»

وقف أحد الحاضرين وقال بصوت عالٍ:

— «انظروا إلى هذا الشاب... يبدو أنه يفهم كل شيء في لمحة، كيف يتنقل بين الأفكار والأدوات.»
— «ربما يكون نبوغًا آخر... روح تجوب الزمن لتجمع المعرفة!»

قهقه زكرياء لنفسه، وهو يعلم أن رحلته عبر العصور ليست مجرد مشاهدة التاريخ، بل لتعلم فنون الخلود والفكر، خطوة بخطوة، عقلاً بعد عقل.

جلس زكرياء الرياح أمام ليوناردو دافنشي في ورشته المضيئة، الكتب والرسومات المبعثرة حولهما، أدوات الرسم والنماذج الهندسية تنتشر على الطاولات.

قال زكرياء:

«لقد رأيت أوروبا قبل هذا... الشوارع المظلمة، الجوع، الخوف، والخرافة...

كيف انتقلت القارة كلها من هذا الظلام إلى هذا النور؟ أخبرني، بالتفصيل، بكل بلد وكل حدث.»

ابتسم دافنشي، وبدأ بسرد طويل، عيناه تتوهجان بالفكر:

«إذن، لنبدأ من الشمال، من إنجلترا...

بعد وفاة الملك إدوارد الثالث، سقطت البلاد في حرب أهلية طويلة، الفلاحون يموتون جوعًا، الطاعون يحصد الأرواح، والدين صار أداة للسيطرة على العقول...

لكن بعض العلماء والفلاسفة، مثل ويليام أوكام في أكسفورد، بدأوا يشككون في الخرافات، يكتبون عن المنطق، ويشرحون أن العقل فوق الخوف.
هذا بذرة النهضة... القليل هنا جعل الناس يرفعون أعينهم نحو المعرفة.»

هامس أحد الطلاب حول ورشة دافنشي:

— «أينما نظرت، يروي تاريخ كل مدينة... إنه ليس مجرد رسام، إنه مؤرخ للفكر.»
— «صحيح... كل كلمة تفتح نافذة على العالم.»

تابع دافنشي:
«ننتقل إلى فرنسا... هناك كانت الحروب المستمرة بين النبلاء، والفرنسيون يموتون في الحقول، المدن محاصرة، والطاعون يتكرر كل عشر سنوات...
لكن على الرغم من ذلك، ظهرت الأكاديميات الصغيرة في باريس وليون، حيث بدأ العلماء بدراسة الفلك، الرياضيات، والفلسفة...
الناس بدأوا يتساءلون، يكتبون، ويقرأون... المعرفة بدأت

تتسلل إلى الشعب.»

نظر زكرياء بإعجاب، وسأل:

«وهل حدث شيء مماثل في إيطاليا؟»

أومأ دافنشي بحماس:

«نعم... إيطاليا كانت متفرقة، كل مدينة تحت حكم مختلف، الفساد منتشر، والكنيسة تفرض قيودًا صارمة على التفكير الحر...
لكن مدن مثل فلورنسا، البندقية، وميلانو، بدأت تحفز التجارة والفنون... الأغنياء أصبحوا رعاة للفن والعلم...
ليوناردو نفسه نشأ في هذا الجو، حيث كل اكتشاف، كل لوحة، كل ابتكار... كان ثورة صغيرة ضد الظلام.»

أخذ زكرياء نفسًا عميقًا، ثم قال:

«وماذا عن إسبانيا وألمانيا؟»

«إسبانيا كانت مليئة بالحروب مع المسلمين على مدى قرون...
الممالك تتنافس، والناس يعيشون في خوف دائم،
حتى جامعة سالامانكا، مع ذلك، بدأت تخرج علماء وفلاسفة
يدرسون المنطق والفلك، رغم القيود الدينية...
أما ألمانيا، فكانت الأرض خصبة للفكر بعد انتشار الطباعة...
يوهانس جوتنبرغ صنع المطبعة، فجعل الكتب تنتشر، وتعلم
الناس القراءة، وانتشرت العلوم والفلسفة كالنار في الهشيم... »

تمتم زكرياء في نفسه:

«كل خطوة هنا... كل ابتكار... كانت معركة ضد الظلام
نفسه... كل عقل مستنير هو ثورة صغيرة.»

ابتسم دافنشي، وواصل بفخر:

«حتى في بلدان صغيرة، كبلجيكا وسويسرا، العلماء والفنانون
بدأوا يشكون في السلطات الدينية، يكتبون عن الحرية، عن
الحقائق العلمية، عن الجمال الطبيعي...
كل ذلك جمع في النهاية، وشكل ما نسميه النهضة الأوروبية...

همس أحد الحاضرين في الزاوية:

– «إنه كأنه يروي أوروبا بأكملها، بلدًا بلدًا، سنة بسنة... لا شيء مُخفى.»
– «نعم... لم يختصر شيئًا ... كل خطوة من الظلام إلى النور.»

جلس زكرياء صامتًا قليلاً ثم تمتم:

«أرى الآن... كيف أن العقل والجوع للمعرفة يمكن أن يغير مصير القارة كلها ... وكيف أن كل ابتكار، مهما كان صغيرًا، كان شعاع ضوء وسط ظلام دامس.»

دافنشي :

«بالضبط... وهذا ما نفعله هنا، الآن... إعادة بناء العقل البشري خطوة بخطوة، حتى يولد الفن والعلم من جديد.»

جلس زكرياء الرياح أمام ليوناردو دافنشي،
الأوراق والدفاتر مبعثرة على الطاولة،
والأقلام والحبر والأدوات الهندسية تنتشر حولهما.

قال زكرياء:

«لقد أخبرتني كيف زال الظلام عن أوروبا ... لكن الآن، أريد أن أفهم كيف بدأ الفن والعلم يتشابكان... كيف تحولت كل فكرة صغيرة إلى حركة نهضة كاملة.»

ابتسم دافنشي، وأشار إلى الطاولات المملوءة بالنماذج:

«لنبدأ من الرسم... كل لوحة، كل دراسة للجسد البشري، كانت أكثر من مجرد جمال...
كانت وسيلة لفهم التشريح، الحركة، والفيزياء... كيف يتحرك العضو، كيف تتفاعل العضلات... كل رسمة هي تجربة علمية صغيرة.»
تجمهر أول مجموعة من الناس حول الورشة، بعضهم من الحرفيين، آخرون طلاب،

يهمسون لبعضهم البعض، بينما يكتب بعضهم الملاحظات:

– «انظروا كيف يفسر الرسم كعلم... لم أتخيل أن الفن يمكن أن يكون تجربة فيزيائية.»
– «كل حركة القلم، كل ظل، كل زاوية... درس كامل عن الجسم والكون.»

أكمل زكرياء:

«وكيف يفسر الهندسة؟ كيف يستطيع دمج الميكانيكا مع الرسم والفن؟»

ابتسم دافنشي، ووضع نموذج آلة على الطاولة:

«انظر... هذا نموذج لمروحة الهواء... إذا فهمت القوة والحركة، يمكنك بناء أي شيء...
ولكن الملاحظة الدقيقة والتجربة العملية هي الأساس...
الفكرة وحدها لا تكفي.»

ازدادت الحشود حول الورشة، الآن يشاهد طلاب من مدارس أخرى، بعض العلماء، وحرفيون،
وبعضهم يبدأ في تدوين كل كلمة بحبرهم على دفاتر صغيرة، يكتبون كل فكرة، كل مثال، كل تفسير.
قال زكرياء:

«وهل يمكننا استخدام هذه المعرفة لتغيير المدن، أو لتحسين حياة الناس؟»

أومأ دافنشي بحماس:

«بالطبع... الفن ليس مجرد جمال... والهندسة ليست مجرد آلات... كل اختراع، كل لوحة، كل دراسة، يمكن أن تؤثر على المجتمع...
تعطي الناس أملاء طريقة للتفكير الحر، ووسيلة لفهم العالم حولهم.»

همس أحد الحاضرين، بينما يكتب في دفتره:
— «كل فكرة تنقل نور العقل... هذا الحوار يستحق أن يُنسخ

ويُوزع.»

— «لقد بدأوا جميعًا يرفعون رؤوسهم عن الخوف... يسمعون، يفكرون، يسجلون.»

سأل زكرياء، وهو يشير إلى رسوماته الميكانيكية:

«وكيف تجمع بين الفن والاختراع؟ كيف تصبح كل لوحة آلة، وكل آلة لوحة؟»

قال دافنشي، وهو يشير إلى نموذج آخر:

«الفن يمنحك الرؤية... الاختراع يمنحك التطبيق...

إذا فهمت الحركة، والظل، والنور، يمكنك تحويل الرؤية إلى حقيقة ملموسة...

كل فكرة تبدأ في عقلك، ثم تتحرك عبر يديك، ثم تصبح واقعًا أمام الجميع.»

ازداد الحشد، الآن يشمل طلاب، فنانين، علماء، رجال دين، وأطفال فضوليين،

ويتبادلون النظرات و الأحاديث:

– «انظروا كيف يشرح كل شيء... كل حركة قلمه درس جديد.»

– «كل مثال، كل آلة، كل لوحة... كأننا نعيش في فصل من الكتاب الحي.»

تنفس زكرياء الصعداء قليلا، وقال:

«الآن أفهم... النهضة ليست مجرد أحداث تاريخية... إنها مجموعة عقول مستنيرة، كل واحدة تضيف شعاعًا من الضوء... »

أخذ دافنشي لوحة كبيرة ووضعها على الطاولة، مشيرًا إلى كل تفصيل:

«كل جزء من هذه اللوحة درس في الهندسة، الفيزياء، التشريح، والفلسفة...

وكل من يراقبها، يفهم جزءًا من الكون... وكل فكرة صغيرة يمكن أن تغير مجرى التاريخ.»

تعالت أصوات الجمهور، بعضهم يكتب، بعضهم يناقش، بعضهم يكرر الفكرة بصوت عالٍ:

– «يا للروعة... كل كلمة لها قيمة، وكل حركة درس!»
– «من كان يظن أن الفن يمكن أن يكون علمًا، والهندسة يمكن أن تكون فلسفة!»

تمتم زكرياء لنفسه، وهو يرى الجميع يتفاعل:

«هكذا يولد النور بعد الظلام... ليس بالسيف، ولا بالخوف، بل بالعقل، الفهم، والملاحظة الدقيقة... كل شخص هنا أصبح جزءًا من النهضة.»

نهض دافنشي من الكرسي بشغف وقال:

«بالضبط... وهذا هو سر خلود الفكر... كل فكرة تنتقل من عقل إلى آخر، وتنتشر، حتى تتحول إلى حركة تغيير حقيقية.»
قال زكرياء:

«لقد رأيت كيف يدمج الفن والهندسة... لكنني أريد أن أفهم الطبيعة نفسها ... الفلك، النجوم، حركة الكواكب... كيف

يمكن للإنسان أن يربط هذا كله بالفن والعقل؟»

تحول وجه دافنشي لوجه طفل صغير من شدة السعادة، وأشار إلى نموذج كروي يحاكي حركة الأرض والشمس:
«انظر... هذا نموذج لكوكب الأرض يدور حول الشمس...
حركة الكواكب ليست مجرد أرقام... إنها لغة الطبيعة... إذا فهمت الحركة، فهمت النظام الذي يحكم الكون كله.»

همس أحد الحاضرين:

– «يا له من عبقري... يربط بين النجوم والعقل والآلة!»
– «وأنا أرى نفسي أكتب كل كلمة، كل فكرة... لا أريد أن أفقدها.»

أكمل دافنشي، وهو يشرح كل بلد وأثره على الفلك:

«في إيطاليا، نحن بدأنا ندرس حركة الشمس والنجوم بدقة...
في ألمانيا، جوتنبرغ وفرت الطباعة كتبًا عن الفلك... في فرنسا وإنجلترا، الفلاسفة والرياضيون كتبوا عن الملاحظات، التجارب،

والحسابات...
كل هذه المراحل صغيرة لكنها متصلة... كل عقل يسهم في فهم أكبر، في بناء صورة كاملة عن الكون.»

زاد عدد الجمهور، والآن أصبح يشمل طلاب من مدن مجاورة، فنانين، علماء، صيادين فضوليين،
الكل يكتب في دفاتر، يسجل كل فكرة، يسأل أسئلة، ويعلق بصوت مرتفع:
— «إذا فهمنا حركة الكواكب بهذا الشكل، يمكننا توقع الفصول، الزراعة، وحتى حركة البحار!»
— «أجل... العلم لم يعد حكراً على الأغنياء، بل أصبح نورًا يصل إلى كل من يريد أن يفهم.»

سأل زكرياء:

«وهل يمكننا ربط هذا بالفن؟ كيف يمكن للوحة أو تمثال أن يعكس فهمنا للنجوم والطبيعة؟»

أشار دافنشي إلى لوحة كبيرة للسماء والنجوم:

«انظر إلى هذا... كل نقطة ضوء على اللوحة تمثل نجمًا، كل حركة فرشاة تتبع القانون الطبيعي...
الفن هنا ليس جمالاً فقط... بل وسيلة لفهم النظام، للقوانين الخفية التي تحكم العالم.»

همس أحد الحاضرين، وهو يدون ملاحظاته:

– «كل ضربة فرشاة... كل دائرة... درس في الفلك والهندسة والفلسفة!»
– «وأنا أرى أن هذا الحوار يجب أن يُنقل للجامعات والمدارس... كل شخص هنا يتعلم أكثر مما تعلمه خلال سنوات.»
أكمل زكرياء، مغمورًا بالفضول:

«وهل يمكن للإنسان أن يغير شيئًا في الطبيعة إذا فهم قوانينها؟»

ابتسم دافنشي وقال:

«نعم... إذا فهمت القوانين، يمكنك تصميم آلات، تحسين

الزراعة، التحكم في تدفق المياه، وحتى التنبؤ بالطقس...
كل اختراع، كل تجربة، كل فكرة تنقل جزءًا من النظام الكوني إلى أيدينا.»

ازداد الحشد أكثر، والآن أصبح يشمل رجال حكمة، طلاب من كل المدن، فنانين، وأولياء أمور أطفال،
يتبادلون الهمسات، يكتبون الملاحظات، يسجلون الرسومات، ويصرخ بعضهم بالإعجاب:
— «لقد أصبح المكان مختبرًا حيًا للمعرفة!»
— «كل فكرة تُسجل، كل سؤال يُطرح... لا شيء يضيع هنا!»

تمتم زكرياء في داخله:

«هكذا يولد الفهم الحقيقي... كل فكرة تنتقل، كل عقل يستوعب، كل شخص يشارك... وهكذا تتسع دائرة المعرفة من مدينة صغيرة إلى العالم كله.»

أخذ دافنشي نموذج آخر، هذه المرة لمحاكاة حركة المياه:

«انظر إلى هذا النهر... إذا فهمت قوة التدفق، حركة الأمواج، تأثير الرياح، يمكنك تصميم قنوات، عجلات، ومعدات تعمل بتناغم مع الطبيعة...
العلم والفن والفلسفة يتحدون هنا... كل شيء مترابط، وكل فكرة يمكن أن تغير العالم.»

همس أحد الحاضرين:

— «لقد تحول الحوار إلى كتاب حي... كل كلمة يمكن أن تُدرس لقرون.»
— «وأنا أرى أن هذا الشاب، زكرياء، يتعلم بسرعة... سيصبح ناقلاً لهذا النور إلى العالم بأكمله.»

ابتسم زكرياء لنفسه، وعيناه تتوهجان:

«لقد فهمت الآن... النهضة ليست مجرد فن أو علم... إنها تناغم بين كل عقل واعٍ وكل فكرة حرة... وكل من يسمع، يكتب، ويشارك، يصبح جزءًا من الحركة التي تغير العالم.»

تلاشت أصوات الورشة، أصوات الحشود، والدفاتر، لتُستبدل بضوضاء قصر ضخم في فرنسا، أواخر القرن الثامن عشر. وجد زكرياء نفسه في باريس نابليونية، الشوارع المزدحمة بالجنود والفرسان،
الرايات تتطاير في الرياح، المدافع تصدح من بعيد، والناس يمشون في خوف وفضول في آن واحد.

وقف على أحد الجسور المطلة على نهر السين، ينظر إلى المدينة فوجد المباني التي كانت فعلا ضخمة، حجرية، محكمة البناء، تحمل رموز السلطة والهيمنة. و إلى الناس و الجنود يسيرون في صفوف متقنة، المدنيون يراقبون من وراء النوافذ، بعضهم يكتب عن الأحداث في دفاتر صغيرة، والبعض الآخر يهمس بنظرات خوف ودهشة.

سمع زكرياء بعض الحوارات بين الناس في الشوارع:

— «نابليون في المدينة... ماذا يريد الآن؟»
— «سمعت أنه يعد خطة لغزو أوروبا كلها... لا أحد يمكن أن يقف أمامه!»

– «لكن البعض يقول إنه عبقري في التخطيط، لا يقارن بأحد!»

قال زكرياء لنفسه:

«الهدف واحد... كما رأيت مع الأسكندر... الخلود عبر التاريخ، اسم يتذكره الجميع... لكن هل القوة وحدها تكفي؟»

اقترب زكرياء من قصر الإمبراطور، محاولاً أن يرى نابليون عن قرب، لكن الجنود أوقفوه بسخرية:

– «من أنت كي تلتقي بالإمبراطور؟ ابتعد قبل أن تدوسك الخيول!»
– «يا هذا، حتى الطلبة ليس لهم الحق في الاقتراب!»

ابتسم نابليون فجأة من بين الحاشية، ملوحًا بيده:
«دعوه يقترب... أريد أن أسمع ما يقوله هذا الشاب الغريب.»
وقف زكرياء أمام الإمبراطور، وقال باحترام:
«يا إمبراطور، أود أن أتعلم منك عن قوتك، عن التخطيط، وعن كيفية ترك أثر خالد في التاريخ.»

رد عليه نابليون:

«إذاً، لنبدأ... كل خطوة في الحرب، كل خطة استراتيجية، كل تحرك، له معنى...
الإنسان يريد الخلود، كل قائد يحلم بأن يتذكره التاريخ، وأنت هنا لتفهم ذلك.»

تجمع بعض الحاشية، بعض العلماء العسكريين، والمستشارين حولهما، وبدأ الحوار الطويل،
زكرياء يسأل عن الاستراتيجيات، الإدارة، تأثير السلطة على الناس، وكيف يمكن أن يخلد الاسم عبر الفتوحات،
ونابليون يرد بأمثلة دقيقة:

تحركات الجيش في إيطاليا، مصر، وأوروبا الشرقية.
التخطيط للتجنيد، التموين، وتأثير كل خطوة على الجنود والمدنيين.
كيف يمكن للاسم أن يخلد عبر الانتصارات و التاريخ المكتوب، والرموز التي تُترك خلفه.

همس أحد الجنود في الخلف:

— «إنه ليس مجرد لقاء... إنه درس في القوة والتاريخ!»

— «وأنا أكتب كل كلمة... لا أريد أن أفقد أي تفصيل!»

وقف زكرياء الرياح أمام نابليون،

عيناه ثابتتان، صوته هادئ لكنه قوي:

«يا إمبراطور، القوة وحدها لا تصنع الخلود ... التاريخ لا يذكر من سيطر بالسيف، بل من زرع الفكر، ومن جعل الإنسانية أفضل...
أما من يظن أن اسمه سيخلد بالدم والفتوحات فقط، فهو يخطئ...
حتى التاريخ نفسه يمكن أن يلعنه.»

ارتجف الحشد من دهشة، بعض الجنود والمستشارين سكتوا عن الكلام،

الوجوه مليئة بالصدمة... لم يتوقع أحد أن يجرؤ شاب أمام نابليون بهذه الصراحة.

نابليون، في البداية، حاول أن يضحك:

«ماذا تقول يا هذا؟ هل تعتقد أن كلامك الصغير يمكن أن يوقف إرادة الإمبراطور؟»

رد زكرياء، وأضاف بحزم:

«الإمبراطور، كلامي ليس صغيرًا... إنه حقيقة، واضحة لكل من يمتلك عقلاً... وأنت تعلم في قلبك أن كل فتوحك، مهما عظمت، لن يخلدك كما يفعل العقل، العلم، والفكر.»

تراجع نابليون للحظة، وجوه الحاضرين تتغير، بعضهم يهمس لبعضهم:

— «لقد فحم الإمبراطور... لم يرد حرفًا عليه بعد.»
— «لم أرَ أحدًا يجرؤ هكذا أمام نابليون!»

غضب نابليون فجأة، صوته ارتفع:

«أكف عن تحدي سلطتي! هذا الشاب سيُعاقب... اقتيدوه إلى السجن فورًا!»

أمر الجنود بحمل زكرياء، بينما الإمبراطور يتنفس بغضب، عينه مليئة بالانتقام:

«لن أنسى هذا الإهانة... وسأجد الطريقة لأرد لك الدين، أيها الشاب... لا أحد يسخر من نابليون بلا حساب!»
قال زكرياء، وهو يُسحب بعيدًا عن القصر، بابتسامة هادئة على وجهه:

«حتى الغضب لن يوقف الحق... وكل من يفهم التاريخ، يعرف أن الفكر يتجاوز القوة، وأن العقل يخلد أكثر من السيف.»

وهاكذا تنتهي مغامرة زكرياء الرياح في زمن نابليون،
لكن نابليون بقي في القصر يفكر، قلبه يشتعل بالانتقام،
وعقله يحاول أن يجد طريقة لرد الدين أمام هذا الشاب الذي فاجأه بالحقيقة.

الحشد ينظر بدهشة، وبعضهم يبدأ بالحديث فيما بينهم:

— «الشاب لم يكن مجرد مسافر... إنه عقل لا يهاب أحدًا.»
— «حتى الإمبراطور نفسه لم يستطع الرد عليه... هذا درس لكل من يظن أن القوة وحدها تكفي.»

وانطفأ المشهد مع صدى هذه الكلمات، تاركًا تاريخًا محتدمًا، قوة، وفكرًا خالدًا، حيث انتهت القصة بقدرة زكرياء الرياح، وتركته أمام تحدٍ جديد في ذهن نابليون.

جلس زكرياء الرياح في زنزانته،

الحائط البارد يحيط به، والضوء خافت يتسلل من نافذة صغيرة، لكن عينيه تتوهجان، وعقله يركض أسرع من أي قيد.

تمتم لنفسه:

«لقد رأيت الأسكندر، نابليون، ابن سينا ... كل واحد منهم ترك أثرًا في التاريخ،

لكن الطريق لم ينتهِ بعد ... هناك عظماء آخرون، فلاسفة، علماء، مخترعون، ومفكرون، ينتظرون لقائي.»

ابتسم وهو يستحضر كل حوار، كل درس، كل استراتيجية، وكل فكرة التقطها من الماضي:

«سأتعلم كل شيء... سأفهم كل عقل... سأجمع المعرفة، الفن، الفلسفة، والاستراتيجية... لأصبح أنا الآخر خالدًا في التاريخ.»

صوت الحشد والذكريات يتردد في ذهنه سقراط أسئلة العقل والمنطق. الأسكندر القوة والاستراتيجية. ابن سينا الطب والفلسفة. ليوناردو دافنشي الفن والعلم والهندسة. و اخيرا نابليون الطموح، الإدارة، والقدرة على التأثير.

قال زكرياء:

«الجزء الثاني لن يكون أقل إثارة...
سأقابل عقولاً أعظم، وسأواجه تحديات أكبر،
وسأكتشف أسرارًا لم يرها التاريخ من قبل... »

إنتهى الجزء الأول و لله الحمد